سعاد الراعي
بين غربتين
الجزء الاول
رواية - سيرة ذاتية

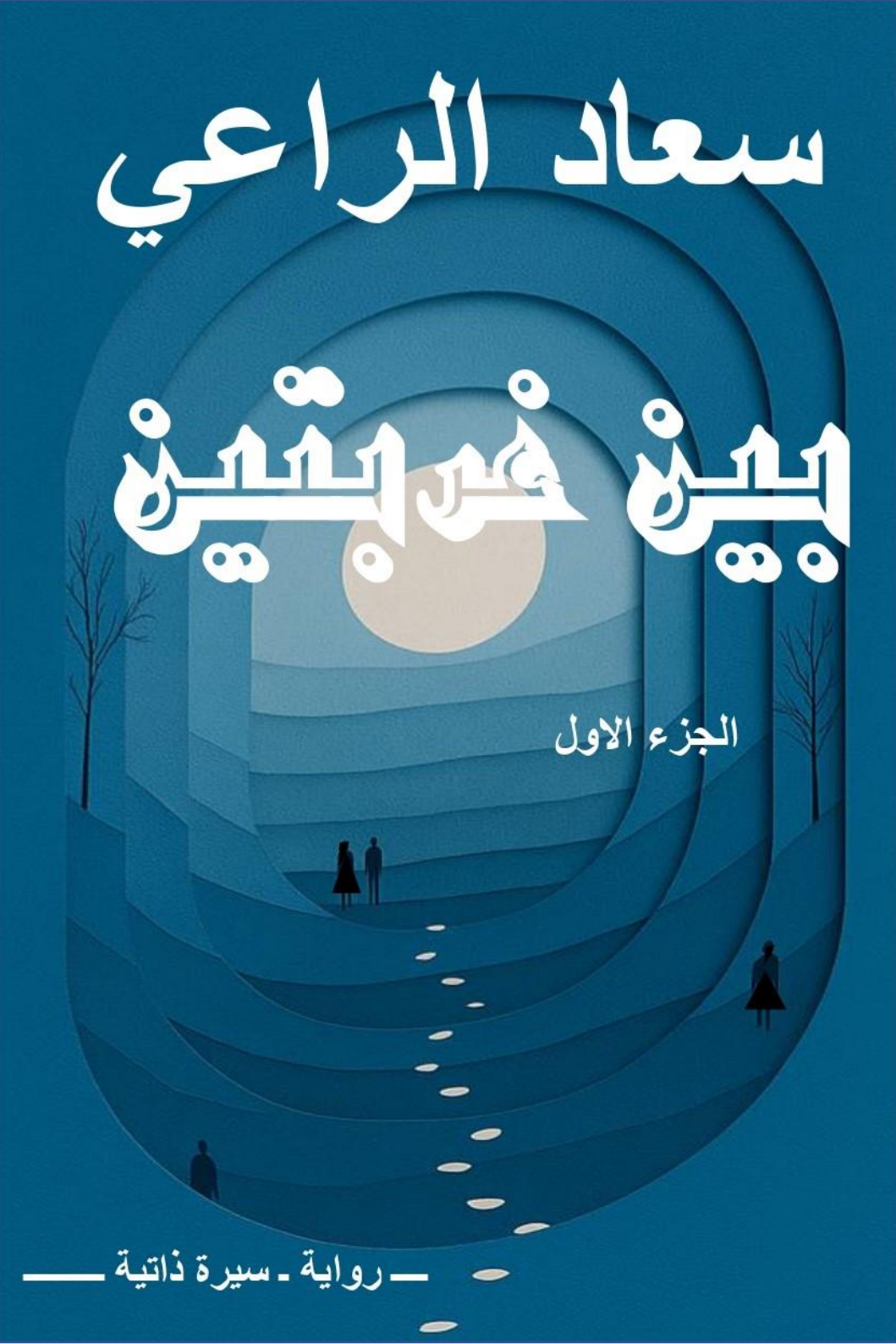

# بين غربتين

**رواية سيرة ذاتية**

# سعاد الراعي

# بين غربتين

**الجزء الأول**

**ـــ رواية، سيرة ذاتية ـــــــ**

| | |
|---|---|
| **Title**:<br>Between Two Exiles | **العنوان:**<br>بين غربتين |
| **Author**:<br>Suad Alraee | **تأليف:**<br>سعاد الراعي |
| **All Right reserved** | **جميع الحقوق محفوظة** |
| **Cover design:**<br>Tarik AL- Hilfi | **تصميم الغلاف:**<br>طارق الحلفي |
| First Edition 2025 | الطبعة الأولى 2025 |
| Aris / Germany | آريس/ المانيا |
| ISBN:<br>978-3-9825711-1-9 | **رقم الإيداع/ الترقيم الدولي:**<br>978-3-9825711-1-9 |


All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means.
without the prior written permission of the author.

# الإهداء

إلى الرجل الذي كان لي وطنًا حين ضاقت بي الأوطان،
إلى من كان سندي ومرفأ أماني في رحلتي،
إلى من حمل عني بعض وجعي، وآمن بي حين شككت في نفسي،
لولاك، ما خرجت هذه السطور إلى النور.

إلى أولادي، من أعادوا صياغتي من جديد،
أنتم النبض الذي يعيد لي المعنى كلما تهت أو أخطأت،
أنتم السبب الأجمل لأكتب، ولأواصل هذه الحكاية...
من نوركم، ولكم.

# المقدمة

هي رحلة مضطربة من عمر امرأة توزّع بين ضفتي دولتين، ولسنتين: ضفة الذاكرة، وضفة المنفى. تبدأ من لحظة عبور عتبة الطائرة، تاركة خلفها وطناً مألوفاً، مأهولاً بالمخاطر، إلى أرضٍ غريبة تجهلها، ومنذ الخطوة الأولى على الأرض الغريبة، كانت الريح معاكسة، والعاصفة في الانتظار.

وجدت نفسها تغرق في محيط من القلق والصمت والوحدة، ولم يكن للضوء منفذ، سوى ما كانت تحمله في داخلها من بقايا أملٍ مشوب بالتوجس، هناك، في البعيد، لم يكن زوجها

كما عرفته؛ التبدّل الذي طرأ عليه لم يزدها إلا اغتراباً، فصارت غربة في حضن غربة، وانقسمت الروح على ذاتها.
وفي تداعي الذكريات، يبرز العراق بكل ثقله ودفئه وندوبه. من بين الشقوق، تتسلل التضحيات التي نسجتها يوماً بدمعها وصبرها، في سبيل النجاة، وفي سبيل من كان وجوده غياباً، وغيابه حضوراً لا يفارق.

في المنفى، لم تكن الغربة جغرافيا، بل كانت شبكة متشابكة من صراعات خفية، داخل جماعة ظنّت أنها موحّدة، لكنها كانت تمزقها التناقضات والمصالح الشخصية. هناك، في ذلك الركن المجهول، كشفت لها الغربة عن وجهها الحقيقي: واقع منفى هش، ومبادئ تتهاوى بصمت وحكايات منفيّة تحوم كالأشباح في أرجاء الذاكرة.

رغم كل ما مرّت به، لم تنحنِ. كانت الغُربتان ـ تلك التي خارج الجسد، وتلك التي تسكن الروح ـ كجمرتين ـ تلسعانها، لكنّها لم تسمح لهما أن تحوّلاها إلى رماد، بل صهرتْ ألمهما في أعماقها، حتى صارتا نورًا ينير قلبها، ودفئًا يغذّي ذاكرتها. حوّلت وجع الغربة إلى حكاية، تحفظها بعناية، لترويها لأبنائها، ثم لأحفادها، لا كمرثية، بل كوثيقة حياة... شهادة امرأة لم تهزمها الغربة، بل أعادت

تشكيلها من جديد. خرجت من صقيعها مشتعلةً، ومن رمادها أكثر توهجًا.

الغاية من كتابة السيرة الذاتية ليست مجرد توثيق لما كان، بل هي فعل تحرّر، انعتاق من قيود الذاكرة الثقيلة، صرخة تُطلق قبل أن يسدل الموت ستاره، لتبقى الكلمات بعدنا كضوء دافئ في عيون من نحب. إنها محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من إنسانيتنا.

هل ابتكرت طريقي لأقول ما اردت؟ هذا الطريق، المجبول بالألم والصبر والحكمة... لم اخترعه، لأني كتبته بصدق، وواجهت به نفسي أولًا، والآخرين من بعد.

**سعاد الراعي**

درسدن/ المانيا

01.05.2025

# توطئة

كانت غارقة في متاهات أعماقها، تنظر إلى الفراغ الممتد أمامها وكأنها تستعرض جروحًا قديمة تنزف بصمت، فجوات داخلية لم يشفها الزمن رغم عقود مضت. اقترب منها بحنان وطبع قبلة على جبينها، فأفاقت من شرودها واعتذرت:

ـ عذرًا، كنت شاردة الذهن ـ لا بأس، حبيبتي. أين كنتِ؟

ـ رحلتُ قليلًا إلى الماضي... ظننتك منشغلًا بقلمك.

ـ ولماذا أرى الحزن جليًا في عينيك؟ حدّثيني، فأنا هنا لأصغي.

إنه الجرح القديم...

ـ الم يكن بيننا اتفاق على دفن الماضي والمضي قدمًا؟

ـ ليس بهذه السهولة يا حبيبي.

ـ إذن لدي اقتراح: جربي الكتابة.

ـ الكتابة؟

ـ نعم، عبّري عن كل ما يُثقل روحك على الورق. اجعليه قالب ذكريات تستعيدينها أو تحاورينها بصدق وانفتاح.

أعاد اقتراحه إلى ذهنها ذكريات عملها السابق كمترجمة في عيادات الطب النفسي، حيث كان يُوصى المرضى باستخدام الكتابة كعلاج للصدمات. فكرت للحظة وقالت:

ـ فكرة معقولة، لكن كيف سأوفق بينها وبين التزاماتي اليومية؟

ـ سأساعدكِ وأوفر لكِ وقتًا من يومك.

ـ شكرًا، لكنني لا أريد أن يكون ذلك على حساب وقتك.

ـ لا تقلقي، سنتجاوز هذه الصعوبة معًا. فقط ابدئي، وأنا معك.

ـ نعم... دائمًا تكون البدايات هي الأصعب.

بدأت تبحث في أغوار ذاكرتها، مستعرضةً محتويات صندوق باندورا الخاص بها. وجدت أول خيوط تجربتها الأولى في الحب والزواج، وشرع قلمها يقودها بحذر بين أروقة الذكريات، مستكشفًا تلك الجراح القديمة التي كانت تنتظر أن تُحكى...

# الفصل الاول

# بين غربتين

# 1. شجو اللقاء

**المكان: صوفيا**
**الزمان: أواخر سبعينيات القرن المنصرم،**
**ظهيرة أحد أيام يناير/ كانون الثاني.**

أعلن قائد الرحلة عبر مكبر الصوت وصول الطائرة إلى مطار صوفيا، قادمة من بغداد. أتبع ذلك بإعلان الساعة حسب التوقيت المحلي: الثانية بعد الظهر، مع درجة حرارة تصل إلى 10 درجات تحت الصفر. شهقت بدهشة، ثم حدّقت من نافذة الطائرة. امام عينيها امتد بساط من الثلج الأبيض الكثيف، يغطي كل شيء في الأفق. وجدت نفسها في عالم

جديد لا تعرفه. تلك هي المرة الأولى التي تشاهد فيها الثلوج بهذه الكثافة والطغيان. لم يخطر ببالها أنها ستواجه شتاءً بهذا القسوة. لم يخبرها زوجها، في آخر اتصال له، عن ضرورة الاستعداد لمثل هذا الطقس القارس، خاصة وهي تحمل في أحشائها جنيناً نابضًا بالحياة. وموعودا ببدايات جديدة.

أدارت رأسها ببطء. تفحصت الركاب بعينٍ قلقة، تسبر الجلبة التي احدثوها، فإذا بهم جميعاً يرتدون معاطفهم الثقيلة، وشالاتهم الواثقة حول أعناقهم، وقبضات أيديهم تستكين في دفء قفازات تتحدى صقيع صوفيا القارس. وحدها، هي من لا زالت ترتدي فستانها الأبيض القصير وحذاء بكعب، كما لو أنها في يوم عادي في بغداد.

لم يكن لديها أي تصور مسبق من انها ستقف أمام لهيب هذا البرد الصامت لشتاء بلغاريا، ولم تكن تمتلك الأدوات التي نمتلكها اليوم من وسائل تنبئها للاستعداد لهذا الموقف.

بدا مشهدها وكأنه يمثل غربتين في آن واحد: غربة المكان، حيث الثلج صديق قديم للجميع هنا، إلّاها، وغربة التجربة، وهي تتأمل عالَمًا بدا، كليًا مختلفًا عنها. هذه الأفكار وسواها كانت تدور في ذهنها حين صفعها الهواء البارد وهي تطل من باب الطائرة. انزلقت خطواتها على السلم، مسرعة بنبض لهفة تسبق قدميها، تتأرجح بين فرحة اللقاء المنتظر، أو

غارقة في ارتباك اللحظة التي احست فيها ان المسافرين يتطلعون اليها بدهشة تكسوها علامات تعجب، حول ملابسها الخفيفة التي تبوح بتناقضها الصارخ مع قسوة الشتاء الثلجي الذي يحتضن المطار. تشبثت بحاجز السلم في محاولة لاستعادة توازنها، او كأنها تحمي تماسكها الداخلي من الانهيار.

كل تفصيل في حركتها كان يعكس صراعًا خفيًا بين هشاشة ما كانت فيه، وعزم الروح على المضي قدمًا. أكملت إجراءات المغادرة بشيء من الارتعاش المكتوم، وكأنها تطوي صفحة الخوف الذي تركته خلفها. حين خطت إلى الخارج، تنفست الصعداء. نسمة حرية لامست قلبها، وابتسامة صغيرة شقت طريقها إلى شفتيها، إشراقة فرح ممتزج بترقب القادم.

كان اللقاء بزوجها الحبيب بعد غياب، يلوح كدفء تنتظره الروح وسط زمهرير الذاكرة. ستجد حتما في هذا اللقاء أمانًا لحياتها التي خيم عليها هاجس الفقد والهروب من مصير مروّع. كل خطوة هنا هي نجاة من الاختفاء القسري الذي ابتلع رفاقها. كل بتلة نفس هنا، هي دليل على النجاة من أقبية التعذيب التي غيبت الكثيرين في وطنها. توجهت مباشرة الى صالة الاستقبال. بحثت في وجوه المستقبلين، لكنها لم تجده.

انطلقت الى خارج المطار علها تجده هناك في انتظارها. خاب مسعاها. دفعت بالعنوان، الذي احتفظت به لمثل هذه الأوقات، للسائق، وبنبرة تحمل بين طياتها أملًا ان يوصلها الى مبتغاها. أومأ برأسه بابتسامة ودودة، ثم خطا خارج السيارة متجهًا نحو مؤخرتها. لم يجد الحقائب التي توقع ان يضعها في الصندوق الخلفي، التفت نحوها بنظرة تملؤها التساؤلات الممزوجة بالقلق. ابتسمت بأسف، ورفعت كتفيها في إشارة عفوية، همست: **"أنا هنا بلا حقائب"**.

لم تكن قد حملت معها شيئًا حينما غادرت العراق سوى حقيبة كتف نسائية. تركت كل شيء وراءها، متوقعة أن يُلقى القبض عليها قبل أن تصل إلى الطائرة، فهي مطلوبة من الأمن العام لنشاطها السياسي المعارض للنظام. عادت بها الذكرى إلى وجه أمها عند صالة المغادرة، شاخصة ببصرها المليء بالدعاء، تهمس بآيات من سورة يس، متشبثة برجاء ان تصبح الكلمات جسرًا من الأمل يعبر بابنتها الى ضفة السلامة. كانت الأم تلتقط الأخبار من بعيد، مترقبة لحظة إقلاع الطائرة كعلامة على عبور ابنتها نحو الأمان.

كانت المدينة تستقبل عينيها بفيض من الأضواء والألوان التي ما زالت تحمل عبق احتفالات رأس السنة. راقبت كل شيء يمر أمامها بفرح طفولي وفضول متقد، وكأنها تبحث

عن إشارات تُنبئها بشيء خفيّ عن المبتغى. تساءلت في أعماقها عن سر غيابه. وهو الذي كان يعلم تمامًا توقيت وصول طائرتها. ربما أصابه عارض، أو أعيته علّته القديمة التي طالما صارعها بصمت. لم تشأ أن تستسلم للقلق، بل احتفظت ببارقة أمل تشعلها الاحتمالات المطمئنة.

دفعت الباب الدوار للفندق، كان يعج بالأرواح القلقة، حيث تجمعت حكايات منفى حزينة في وجوه المهاجرين السياسيين العراقيين الهاربين من قبضة الديكتاتورية الدموية، في وجوههم التي عكست حكايات منفى مشتركة، ووجع واحد يسكن الملامح. شعرت وكأنها جزء من هذا الزحام، لأنها تحمل ذات الندوب، وذات التوق للأمان والطمأنينة. *

في قاعة الاستقبال، حيث تغمرها موجة من الترقب والاضطراب، حاولت استعادة نبضها الذي أرهقه السفر والانتظار. وسط ضجيج الرفاق وحركاتهم الدؤوبة التي

* تجلت مواقف جمهورية بلغاريا كملاذٍ آمن للشيوعيين العراقيين، ففتحت أبوابها تضامنًا مع أرواحهم المثقلة بالاضطهاد ومصائرهم المهددة. كان ذلك تعبيرًا إنسانيًا لافتًا في وجه موجات القمع والتصفية التي تفاقمت خلال النصف الثاني من سبعينات القرن الماضي، حيث امتلأت السجون والمعتقلات بأجساد النشطاء، وشهدت أعواد المشانق كوكبة من المناضلين. جاء هذا الحِراك تضامنًا مع الديمقراطيين والمثقفين الذين وقفوا بشجاعة ضد ممارسات السلطة القمعية التي استباحت الحريات، والتي كانت محمية بظل تحالف سياسي هش سرعان ما تحول إلى سجنٍ آخر.

تشبه عاصفة من النشاط والتواصل. كانت أجواء القاعة تختلط بين حرارة الترحيب وبرودة التساؤلات المبطنة التي قرأتها في عيون ممن حولها، لمسات الترحيب الحزبية من رفاق قدامى، أو من العارفين لزوجها، الذين منحوها لحظات دافئة في هذا المكان الغريب، عبر قدح من الشاي العراقي الساخن، قدمه أحدهم والذي بدا كهدية من الوطن، لامس شغاف قلبها.

جلست تنبش في دفء الشاي الذي لم يسعفها في محو التوتر، ولم يستطيع اختراق القلق الذي يتأجج في أعماقها. غمرتها قشعريرة خفيفة، وجدت نفسها عاجزة عن إمساك القدح، وضعته على أقرب منضدة اليها.
كان الحضور حولها يتحركون في دائرة من التساؤلات الصامتة، تهامس البعض بنظراتٍ غير خفية، هل أخبر أحدهم زوجها بوصولها؟ لماذا تأخر؟ كل هذه الأسئلة تضغط على روحها، تملأ رأسها المتعب، كأنها دقات طبل في عقل مشوش. احاطت قدح الشاي بأصابع مرتجفة، تبحث عن دفء حقيقي ليس فقط لجسدها، لكن لطمأنة الروح التي أثقلها الإعياء وقلق الانتظار.

كانت هذه اللحظات بمثابة مشهد تجسدت فيه الغربة بأقسى صورها؛ قاعة مكتظة بالوجوه، لكنها وحيدة، الكل يستوضح وهي غارقة في تساؤلاتها، وأصوات تتحرك من

حولها، لكنها صامتة أمام قلقها. الرفاق يدورون حولها وهي ساكنة، ليس فقط كحضور مادي، ولكن كمرآة لتلك التساؤلات التي زادت من حدة الصداع الذي بدأ يستولي على ذهنها نتيجة للإعياء والبرد وتعب الرحلة القلقة، الامر الذي أدى الى شعورها بالدوار والترنح في حالة من الغثيان والاغماء. أحضَر لها أحدهم قدحًا من الماء، كأنه أدرك أمنيتها الصامتة، رغم برودته، تناولته، علّه يُنعش روحها المنهكة، ويغسل عنها إرهاق لحظات الانتظار الثقيلة.

كان المساء قد حل، مرحبًا بها بطريقته، فيما أضواء القاعة تُبدد ظلام الانتظار. اعارت انتباهًا للخطوات التي تقترب، وقد عرفت وقعها كما يُعرَف نداء الحبيب من بعيد. كان يهبط السلم نحو القاعة بخطواته التي حفظتها ذاكرتها. نهضت فجأة، كأن الحياة بثّت في أوصالها نبضًا جديدًا. نسيت نفسها وما حولها، حتى قدح الماء الذي أفلت من يدها، سقط مرتطمًا بالأرض، ليبلل قدميها الباردتين، لم تكترث له. وقفت بشموخ يليق بها، تُعلن حضورها بكبريائها.

دخل القاعة بهدوئه المعتاد، كانت المسافة بينهما تشبه تلك البرودة التي لم تعرف لها سببا ولم تألفها فيه من قبل، وابتسامة مُتكلّفة رسمها على وجهه، ليغلق باب الأسئلة. بادلته بعض الخطوات، ثم ارتمت في حضنه بكل ما تبقى

فيها من حب وشغف وفرح، ناسِيةً معاناة الرحلة الانتظار. لم تبحث عن العتاب، ولم يسعَ هو لتقديم الاعتذار. كان اللقاء، بحد ذاته، كافيًا ليختزل كل شيء.

حين استقر بهما الحال داخل الغرفة، انطلقت كلماتها كخيوط ضوء تتلمس طريقها، وهي تسعى جاهدةً لنسج تفاصيل أيامها المتناثرة منذ غيابه، محاولة أن تجمع شتات حكاياتها وصدى ذكرياتها المبعثرة على صفحات يومياتها بعد سفره؛ عن انقطاعها عن العمل، وتخليها عن الدوام الجامعي المسائي، وعن تلك الايام الصعبة التي أمضتها بين شراسة مضايقات رجال الأمن وفظاظة تهديداتهم المستمرة. أخبرته عن اختباءها وتغيير سكنها، وكيف نقلت، لوحدها أثاث منزلهم إلى بيت اهلها، في ليلةٍ واحدة، بحيطة وحذر يشبه من يمشي على خيطٍ رفيع خشية السقوط.

أخبرته عن اخر ما كان عندها من التوصيات والمعلومات الحزبية، وأشارت الى انهم قد طلبوا منها ضرورة الاسراع في السفر لدواعي امنية ملحة. قالتها وعيناها ممتلئتان بفرحة النجاة، بنفسها وبجنينها. سلّمته بقية المال الذي تدبرته للرحلة، وجواز سفرها الذي ينبغي ان يصل إلى الرفاق. سألها عن والدته، وعن أحوال عائلته. طمأنته، وأخفت عنه تفاصيل المواجهة الشرسة التي خاضتها نيابة

عنه، وعن قسوة تهديداتهم لها، وحتى عباراتهم التي وصلت حد الإنذار، استدركت بصوت يختلط بين الأمل والوجع:

**- "كان لديهم يقينًا بعودتك طالما أنا باقية هناك قريبة منهم، وكأنهم لم يفهموا!".**

شعرت فجأة بالحاجة إلى شيء من الدفء. لم تجد في خزانة ملابسه ما يناسبها، ألقت على كتفيها إحدى ستراته، والتفتت إليه سائلة:

**- "وكيف أنت؟ كيف هي الأحوال هنا؟"**

نظر إليها مطولًا، كأنما يقيس وقع كلماته قبل أن يقولها:

**-"لقد تغيرت هنا كثيرًا!... لم أعد الشخص الذي كنت تعرفينه!"**

قالها بوضوح قاطع كالسيف، ثم كررها وكأنه يريد أن يثبّتها امامها في الهواء. انتظرت منه تفسيرًا، لكنه اكتفى بمراقبة ملامحها، لم تسأله، لم تشك بسلبيته.

كانت تحبه حد اليقين. لم تفهم إشاراته ولا برودة؛ من عدم استقباله لها في المطار، إلى تأخره وفتور استقباله لها في الفندق. ظنت أن الوقت سيعيد كل شيء إلى طبيعته، لكنه باغتها بتلك العبارات الواضحة والصريحة، كأنها سهمٌ أصاب قلبها دون رحمة. صمتت، تركت كلماته تُعيد صداها في رأسها، وراودها شعور غريب لم تستطع

استيعابه او تسميته. أرهقها التعب، فاستلقت مكانها، تحضن جنينها، واستسلمت لغدٍ مجهول المعالم، كأنما حياتها كلها أصبحت مُعلقة على حافة غربتين، غربة الوطن وغربة الوحدة.

## 2. وخزات غربة

كان الأرقَ رفيقها كظلٍّ، لا يريد ان يفارقها لذا لم تستطع أن تغفو، رغم ما رافق سفرها من مشقّات وإرهاق، وظروف جوية قاسية خلال رحلتها، كأنها تختبر صبر انتظارها الطويل الذي بدا ممتدًا كأفق بلا منتهى.
تركها بمفردها في غرفة الفندق لفترة، بدت كاستراحة لالتقاط الأنفاس، ثم عاد ومعه مسؤول التنظيم، (كان زوجها نائبًا له في إدارة شؤون الرفاق في الفندق). لم يمضِ وقت طويل حتى امتلأت الغرفة بالوجوه المرحبة بسلامة

وصولها، ظنًا منهم ان دفء الرفقة قادر على ان يعيد للروح طمأنينتها المبعثرة.

سرعان ما غُمرت الغرفة بأصواتهم الصاخبة، وتزاحمت قناني الشراب وتصاعدت في فضائها سحب الدخان، كأنها تخطّ حدود عالم جديد يفتقر للهواء النقي. احست بالاختناق، واجتاحها شعور بغثيان غريب، مما جعل تفاعلها مع هذا المشهد باهتًا، كأنها غريبة عنه، او أنها كانت تشاهد مسرحية لا دور لها فيها.

تقوقعت في زاوية السرير، الذي تقاسموه معها للجلوس، مربكة ومشوشة تصارع الضجيج الذي انبثق داخلها. حاولت ان تلملم شتات ذاتها وسط هذا الواقع الجديد، واقعا بدا غريبًا وهي تشعره كضيف ثقيل يفرض هيبته عليها بكل قسوته وجبروته، لكنه أيضًا، يمكن ان يكون بوابة لإدراكٍ جديد، ونقطة تحوّل ربما لم تتكشّف بعد.

كان انتظار انصراف الضيوف طيف أمل يتراقص أمامها كمنقذ عاجل، حينما اجتاحها شعور مُلّح بالحاجة إلى الاستحمام، كأن الماء وحده بوابة للنجاة مما هي فيه. حين خطت نحو الحمام المشترك في الفندق، لم تلتفت إلى وجود بعض الشباب البلغار في الرواق، ولم تلق بالًا لهم. كانت خصوصية اللحظة التي منحها إياها إغلاق الباب كافية

لتغمرها بشعور من الأمان المؤقت. خلعت حليّها بهدوء ووضعتها، وهي ساهمة، على رف مغسلة الحمام الصغيرة. جلست على البلاط وسمحت للماء الساخن أن يتدفق بشدته عليها، أملا في تبديد ما فيها من ثقل. اختلطت دموعها المنسكبة مع تيار الماء المنهمر، كأنها كانت تطهّر روحها، وتغسل همومها، وتحرر أحزانًا لم تجد لها منفذًا سوى في هذا الخفاء الرقيق.

فجأة، اخترق هدوءها طرق عنيف على الباب. تشظت لحظات سلامها الداخلي كزجاج رقيق، متناثرة واياه في زوايا الحمام. ارتفعت أصوات بلغارية غاضبة تطالبها، كما فهمت، بسرعة الخروج.

تسرّب إليها شعور مرير بانعدام الأمان. عادت إلى الغرفة مسرعة ومليئة بالتشوش، قبل ان تفطن الى إصبعها العاري، لقد اختفى خاتم زواجها. تذكرت كيف انها ارتدت ملابسها على عجل وهرعت إلى خارج الحمام، غافلةً عن اخذ حليّها. اسرعت علها تستطيع استرجاع ما نسيت، الا انها لم تجد سوى بخار الماء يتلاشى، كأن ذكرياتها القديمة تتبخر معه، تاركة خلفها فراغًا لخسارة لا تعوَّض.

حزنت لفقدان حليّها واعتبرته نذير شؤم، خاصة أن العقد كان يحمل أسم زوجها. أخبرته بما حدث، فقابلها بتجهم

وصمت. طلبت منه أن يخبر إدارة الفندق علهم يعلمون شيئا عنها، لكنه اكتفى بعبارة مقتضبة: "**سأفعل**". مع خيوط الصباح، سعت من جانبها جاهدة بالسؤال والبحث عنها، لكن مساعيها باءت بالفشل ومحاولاتها تلاشت كسراب. لم تجد سوى الخيبة.

مع مرور الوقت، لاحظت وجود عوائل مهاجرة في المكان الذي هي فيه؛ أطفال يلهون ونساء حوامل يخطون نحو مستقبل مجهول كحالتها. كان لهذا المشهد وقعا إيجابيا، مدعّما ومشجّعا ومخففًا لما هي فيه من توحد، كأن نبض الحياة الجماعي يربّت على قلبها ويمنحها أملًا وعزمًا على التواصل.

كانت تجربة الحياة وسط هذه المجموعة الغريبة من الرفاق تحديًا، بحد ذاته، بالنسبة لها، انه أشبه برحلة عبر أمواج متلاطمة، تحدٍّ لا يهدأ. صحيح أنهم كانوا يجتمعون حول فكر مشترك واحد وهدف محدد، لكن تباياتهم الشخصية وطموحاتهم الذاتية واضحَة كاختلاف بصماتهم. فقد تمايزت طباعهم واختلفت أمزجتهم، وتباعدت سبل مواجهتهم للواقع؛ بين من يُخفي طموحاته الانانية تحت ستار الرفقة، ومن يرى في الظروف الفوضوية المتقلبة فرصة لجني المكاسب، حتى لو داس على أحلام الآخرين وطموحاتهم التي يستحقونها بجدارة. مع ذلك، كان التعامل

معهم يُشعل داخلها شعلة إدراك جديدة لقوة متطلبات التعايش الرفاقي ومرونة الروح.

لاحظت، مع مرور الأيام، أن من بين ساكني الفندق او زواره وجوهًا معروفة ولامعة، لا تضيء في سماء العراق فحسب، بل وتمتد بألقها إلى آفاق العالم العربي في الأدب والفن والمسرح، غير أن هذا البريق لم يبدد تمامًا ظلال التوترات والمصالح الانانية الكامنة في الشللية والنميمة، وهي تنمو كالأشواك بين الورود، والتي كانت جزءًا من يومياتهم. كما وانسلت صور التقارير الكيدية كهمسٍ مسموم يهدد تماسكهم، ويمزق لحمتهم. رغم ذلك، بقي هذا المجتمع لوحة معقدة من الطموح والإبداع، تجاهد ملامحها المتشابكة لتظل متألقة رغم التشققات والخدوش.

كان توخّى الحذر يحيط بكل خطوة يخطوها الرفاق، خوفًا من عيون النظام العراقي التي تتربص بهم او تندس بين صفوفهم، في غفلة منهم. كما وكانت قواعد السلامة والأمان والسرية صارمة لا تقبل التأويل او التساهل او تجاوزها؛ عليه تم الإبقاء على استعمال الأسماء الحركية ليس لحماية الرفاق في صوفيا وحدها فحسب، بل لأسرهم وعوائلهم في العراق. لذا فان الرصد المتواصل للزوار الغرباء، ومنع الخروج الفردي للرفاق ملزمًا للجميع.

مع كل ذلك، كان في قلب تلك الظلال القاتمة والرؤيا المشوشة لحظات من التآلف الصادق، كالسهرات والزيارات، التي جلبت نورًا في ليالي الغربة، وأفسحت المجال للتعارف والتآخي، فكانت راحة للقلب وسط العزلة، ونسمة هواء تنعش الأرواح في حالك الايام. ورغم ما حملته تلك اللحظات من دفء مؤنس، لم تكن الحياة هناك تخلو من مفاجآت مباغتة، تكشف هشاشة ما نعتقد أنه ثابت.

مرة وهي تتجاذب أطراف الحديث مع امرأة كانت قد رافقتها مع أطفالها في أحد الأيام، للتسوق، فاجأتها بسؤال جفلت من توقيت طرحه ومكنون هدفه، والذي مثل لها صدمة شخصية غير متوقعة هز كيانها، الامر الذي استدعى منها، مذ ذاك، التأهب والتثبت من اسئلة الاخرين وحديثهم وآراءهم، بل والنظر الى ذلك بعين من الحذر والترقب.
قالت المرأة:

**ـ "في الغربة، أصبحنا أكثر حبًا وانسجامًا مع بعضنا (تقصد هي وزوجها)، مضيفة، ان هذا أمر بالغ الأهمية بالنسبة لما استجد من حياتنا هنا.. ولكن ماذا عنكما؟"**

فوجئت بسؤالها وكأنها تغمز من طرف خفي الى شيء ما، يستوجب التوثق منه! كانت كلمات تلك المرأة ثقيلة على قلبها كالصخور، نطقتها وكأنها تدس شيئا ملوثا بالريبة والظنون بين عباراتها. ابتسمت، وأجابتها، دون أن تفصح عن عمق ما تحمله الكلمات من صدى في داخلها:

**ـ "بالطبع، الحب والانسجام كانا حاضرين دوما، ولا زالا منذ اللقاء الأول لنا، ثم أنى سأضع قريبًا طفلًا، سيعزز، بالتأكيد لحمتنا واواصر ما يربطنا ببعض أكثر فأكثر".**

أسْرَت بها الذاكرة إلى مواقف قديمة، حيث تساءلت مع نفسها صادقة عن اخفاقاتها، ان كانت لديها ثمة إخفاقات، او عن أخطائها المحتملة، ربما، تلك التي ارتكبتها بمسحة العفوية، لتستدعي ان تطرح عليها هذه المرأة مثل هذا السؤال. هل هي من ضمن شكواه للآخرين التي اعتادها قبلًا.

عادت لتستكشف خزين ذاكرتها وهي تستعيد شريطا متيقظًا من حياتها معه: ما السبب يا ترى وراء اثارة مثل هذه الأمور من قبل الاخرين؟ اولئك الذين ما ان تتوطد علاقتهم بهما حتى تنزف الأسئلة المربكة من أحاديثهم. أهي وساوسه القاتلة ام غيرته الطائشة...؟ او ربما ذاك الشك الذي كان يلازمه على الدوام إذا ما ضمتهم حلقة من

الأصدقاء والمعارف. انها اللحظة الفارقة، التي ربما جاءت متأخرة.. لحظة إدراكها للأمر الذي ظل مستعصيا عليها لفهم ما هي فيه، او ما هو عليه، والذي أصبح فيه الزمن شاهدًا على ما مضى..

## 3. غربة مع الشريك

لم تكن تلك الليلة عادية، بل كانت بمثابة نقطة فاصلة رسمت بقوة، ملامح الغربة العاطفية التي بدأت تتسلل إلى حياتهما.
تذكرت كيف انها عادت إلى المنزل في الأسبوع الأخير قبل مغادرته العراق. كانت منهكة من يومها الطويل الذي ابتدأ بضغوط العمل وانتهى بمحاضرات الجامعة. وما كادت تفتح باب الشقة، وتعلق حقيبة كتفها في المشجب القريب، حتى ألقت بتحيةً حانية، مليئة بشوق يومٍ طويل من البعد، تحمل في طياتها لهفةً وحنيناً، وكأنها تخطو بخطواتٍ عجولة نحو لحظةٍ طال انتظارها، الّا أنها لم تلقَ ردًا.

كان الصمت العميق هو الجواب. ولكن! تناهى الى سمعها همساتٍ مكتومة، وشوشة تتسرب من المطبخ، كلمات غائمة غير واضحة المعالم، تخفي وراءها حديث يرسم ملامح غياب ملتبس في كل زاوية.

قادتها قدماها بفضول ممزوج بالقلق إلى مصدر الصوت، وحين دلفت الى المطبخ، وجدته يجلس إلى الطاولة مع عضو بارز من اعضاء اللجنة المركزية للحزب، وصوت حديثهما المتوتر يملأ الأجواء. تقدمت بخطوات وئيدة، بغية الترحيب بالضيف الذي قابلها بصرخة غاضبة :- **"اخرجي من هنا! لا نريد رؤيتك"**.

تلك الكلمات لم تكن مجرد إساءة عابرة؛ بل كانت سهمًا حارقًا اخترق كرامتها. وقفت للحظات مذهولة، تتنقل بنظراتها بين وجه الضيف المتجهم وزوجها المطأطأ الرأس، علّها تجد تفسيرًا لهذا التجاوز الذي مارسه الضيف بلا وجه حق! في بيتها، مستنجدة به تأسيًا لما أصاب كرامتها من جروح، لكنه لم يرفع عينيه عن كأس الشراب الذي بدا وكأنه ملاذه من المواجهة. لم تجد بُدًّا من الانسحاب، تجر خلفها خيوط الخيبة والمهانة، وكأنها غريبة في بيتها.

في تلك الليلة، لم يغمض لها جفن. شعرت بوحدة قاتلة وهي في شهورها الأولى من الحمل، تلك المرحلة التي كان يفترض أن تكون بها في أحضان الأمان والدعم. تمنت لو أمكنها الهروب من هذا الجو الخانق والملبد بغيوم النفور، لكن الى اين؟ لقد وجدت نفسها أسيرة ليل ثقيل، مزجورة وفي مكان معزول لا ملجأ لها سواه.

غمرتها تساؤلات مريرة وهي مستلقية على السرير، والدموع تنساب على وجنتيها، تحفر مساراتها حتى عنقها.'' لماذا؟ من منح هذا الضيف هذه الصلاحية في ان ينتهك حرمة المنزل ليطرد صاحبته. تساءلت في صمت مثقل بالوجع: لماذا يلجأ إلى الشكوى أمام الآخرين بدلاً من مواجهتها؟ ألم يكن من الطبيعي أن يتبادلا الحديث بصراحة وشفافية كأي زوجين؟ ''

حاولت أن تجد إجابة لأسئلتها في أعماق ذاكرتها. أي زوجة كان يريد؟ هل كان ينتظرها أن تكون تلك الصورة المثالية التي يرسمها المجتمع للزوجات؛ الزوجة التي تنتظره في البيت، متأنقة بالزينة والعطور، تُحضِّر له مائدة عامرة بالطعام والشراب، وتستعد واياه لاستقبال الضيوف.

لم تكن تمثل تلك الصورة النمطية منذ البداية، وهو ما يعرفه جيدًا، بل وانه كان مدركًا، ولم يعترض، لكل ما تمثله

أولوياتها عن العمل والدراسة والتزاماتها الحزبية التي كانت واضحة له منذ اليوم الأول الذي جمعهما.

صحيح ان حياتهما المشتركة كانت محدودة الزمن، لا يجتمعان إلا ساعة أو ساعتين مساءً بسبب ضغوط العمل والدراسة، لكن ذلك، لم يكن قط، عذرًا لتلك الشكوى المستمرة. الآن، وها قد تحررا من تلك الالتزامات، ألم يكن حريًّا به ان يعيد حساباته؟ ان يرمم ما تثلم من علاقتهما؟ أن يقترب منها أكثر؟ أن يتحدث معها بدلاً من ترك الشك والغيرة ينهشانه؟

مشاعر الغيرة تلك، لم تُفصح عنها الكلمات بقدر ما أفصحت عنها التصرفات. لم تدركها بوضوح إلا بعد فوات الأوان، حين بدأت تربط سلوكه بمراقبته لها خلال زياراته المتكررة إلى مكان عملها، ونظرات الامتعاض التي كانت تكسو ملامحه حين تحدثه، ببساطتها المعهودة، عن زملائها في العمل والدراسة، وعن تفاصيل يومها العادية معهم، خلال تبادلهما أطراف الحديث عن مجريات يوميهما. الشك والغيرة كانت دائمًا جزءًا لا يتجزأ من شخصيته، انها أشبه بظل يلاحقه أينما ذهب. تلك الغيرة التي طالما شعرت بها تثقل الأجواء بينهما، حتى في اللحظات التي كان يُفترض أن تكون حميمية، مليئة بالحب والدفء. ربما كانت

الغيرة هي المحور الأساسي الذي يدفعه إلى تلك التصرفات، لكنها لم تفهم أبدًا سبب عجزه عن تحويلها إلى حديث صادق بدلاً من أن تكون سلاحًا يمنحه للأخرين لجرح سويّة العلاقة.

في تلك الليلة الطويلة، أدركت أنها تواجه أزمة ليست في الموقف ذاته، بل في الفجوة التي اتسعت بينهما. كانت بحاجة إلى إجابات، لكنه اختار الصمت. كانت تبحث عن شريك يتقاسم معها الأفكار والمخاوف، لكنه تقوقع في عزلته. وهكذا، استمرت تساؤلاتها. لقد حاولت أن تجد طريقًا يعيد إليها ما فقدته: الأمان، الثقة، والطمأنينة التي تمنحها اللحظة التي تشعر فيها انها ليست غريبة عن حياة من اختارته شريكًا.

# الفصل الثاني

روسيا

## 1. القرار..

استقر قرار الحزب الحاسم بترحيل الرفاق من الفنادق التي جمعتهم في بداية المنفى. جاء التوجيه بأن يتم توزيعهم إلى مجموعات مستقلة، يُعاد ترتيب مصائرهم على أرض بلغاريا. كانت التوصيات المركزية التي حددت مساراتهم تحمل في طياتها شيئًا من الاعتبارات الشخصية أو المحاباة (صداقة، معارف، ...)، رغم ما يُفترض أن يكون من حياد ونزاهة. وهكذا تفرقت السبل، فمنهم من حُظي بفرصة الدراسة الجامعية، ومنهم من أُوكل إليه العمل أو الالتحاق

بالدورات الحزبية التي تُقام في الأكاديميات المخصصة لهذا الغرض.

كان نصيبها وزوجها دورة حزبية قصيرة في مدينة روسه. بالنسبة لها، بدا الطريق إلى هذه المحطة الجديدة، محملًا بالتوقعات والآمال، ولكنه كشف أيضًا عن مشاهد لم تكن لتخطر ببالها، مشاهد غيرت ملامح الصورة المثالية التي رسمتها عن رفاق النضال.

كالعادة، تنظيم العمل والمتابعة لكل مجموعة يُناط بمنظمة داخلية، وكان زوجها أحد المسؤولين فيها، مما أتاح له مكانة بين أفراد المجموعة. لكنها، ومنذ اللحظات الأولى للطريق نحو روسه، شعرت بشيء ما ينقبض في قلبها، عندما رأت بأم عينها كيف بدأ المتملقون يتحلقون حول المسؤول وزوجته، وكأنهم في مشهد صامت من الطاعة العمياء والنفاق الذي لا يُخفى.

رفضت هذا المشهد بوضوح لا يقبل الشك، بل شعرت بازدراء شديد لتلك الممارسات التي تُظهر هشاشة المبادئ التي طالما كانت موضع فخر واعتزاز. تساؤل أخذ يلحُّ عليها بقوة: أين نحن مما تعلمناه طوال سنوات العمل الحزبي؟ هل كان كل ما عرفناه وهماً؟ وهل كنا نعيش أوهامًا في الاجتماعات الحزبية المزخرفة بالكلمات

المنمقة؟
كان الجواب يأتيها من المعايشة اليومية. نعم، ها هي المظاهر تتجلى في أوضح صورها. تملقٌ مكشوف، شراء ذممٍ لا يُخفى، تقارير وشاية تُكتب في العتمة، اتهامات تُلقى كيفما اتفق، وتصفي حسابات تُصاغ بتعسف، لمجرد عدم ارتياح أو خلافات صغيرة. تساءلت في ألم: كيف لأشخاص يمتلكون هذا الاستعداد أن يختاروا الغربة بكل صعوباتها ومخاطرها؟ ألم يكن أولى بهم البقاء في العراق والانضمام لحزب البعث الذي يفتح أبوابه لمثل هذه النفوس المائلة للانقياد والتملق؟

كانت ترى بوضوح أن هذا الجمع الذي كان يفترض أن يكون نموذجًا للمثالية والنقاء، قد تحول إلى صورة مؤسفة، لمجموعة من الرفاق يجمعهم شعار واحد: النضال من اجل انقاذ الوطن الذي يعاني تحت حكم الحديد والنار. مع ذلك، لم يكن هذا الشعار كافيًا لردع النفوس عن السقوط في مستنقع الأنانية والتنافس غير الشريف.

كل يوم يمضي كانت تشعر أن الصورة التي لطالما آمنت بها تُسحب من روح مبادئها رويدًا رويدًا. كان الألم يتضاعف في قلبها وهي ترى هذه الازدواجية: بين ما كانوا يتحدثون عنه في العلن وما يظهرونه في الخفاء. شعرت

بغربة حقيقية، ليست فقط في بلد بعيد يحمل لغاتٍ وثقافاتٍ مختلفة، بل غربة عن المبادئ التي جمعتها يومًا مع هؤلاء الرفاق. لكنها، ورغم كل ما عايشته من إحباط، لم تفقد شعلة أملها بالكامل. بقي في داخلها يقين أن العمل النبيل لا يعتمد على الآخرين، بل يبدأ من الذات. قررت أن تواجه هذا الواقع بروح صلبة وعزم لا ينكسر. كان ذلك قرارًا داخليًا، لكنه كافٍ ليعيد إليها بعضًا من الإيمان بأن التغيير الحقيقي يبدأ من الفرد، حتى وإن كانت الظروف المحيطة محبطة إلى حد الوهن.

كانت تُدرك أن مسيرتها في تلك الدورة لن تكون مجرد تجربة عابرة، بل هي اختبار حقيقي لصلابة النفس وثبات المبادئ.

رأت في كل ما حولها درسًا قاسيًا، ولكنه، كما يبدو، ضروريًا، درسًا يعلمها كيف يمكن للنفس البشرية أن تنحرف تحت وطأة الظروف، وكيف يكون من الواجب أن يقف الإنسان، صامدًا، في وجه كل ما يُشوه النقاء في داخله. هكذا، كانت الأجواء في روسه ليست مجرد أيام وشهور من العمل الحزبي والدراسة، بل كانت رحلة داخل أعماق النفس البشرية، رحلة في مواجهة الحقائق التي لم يكن لها خيار سوى مواجهتها، رحلة زادت من يقينها أن النضال

الحقيقي ليس في الشعارات ولا في الاجتماعات، بل في أن يبقى الإنسان أمينًا على ما يؤمن به، حتى حينما تكون كل الظروف حوله تدفعه نحو السقوط. لقد كان الألم كبيرًا، لكن الإرادة كانت أكبر، وفي ذلك كان انتصارها الحقيقي.

## 2.المخاض

روسه، المدينة البلغارية الخضراء الساحرة، والتي تُعتبر خامس أكبر المدن في بلغاريا تحتضنها الضفة الشرقية لنهر الدانوب، وكأنها لوحة فنية رسمتها الطبيعة بحب. هذه المدينة، التي تلقب بلؤلؤة الدانوب، تكتنف في تفاصيلها أصالة التاريخ وعبق الجمال. شوارعها تتماوج تحت ظلال أشجار الجوز واللوز التي امتدت جذورها عميقًا عبر القرون، فيما تنبض ساحاتها بالحياة بفضل معمارها العريق الذي يشهد على حقب تاريخية متعاقبة. المنحوتات والنصب التذكارية المنتشرة في أرجائها تضفي على المكان سحرًا

خاصًا، يروي قصصًا تُحفر في الذاكرة، ويبعث في النفس شعورًا بالدهشة والانبهار.

رغم كل هذا الجمال الآسر، كانت روحها تشعر بفراغ عاطفي كبير، يُلقي بظلاله على حياتها اليومية. كانت تفتقد ذلك الرابط العاطفي العميق، تلك الشراكة الصادقة والدافئة التي تشعرها بالأمان والسكينة. لم يكن جمال المدينة قادرًا على أن يعوّضها عن ذلك الإحساس الغائب، فالقلب يحتاج إلى ما هو أعمق من المناظر الخلابة ليستقر ويهنأ. مع ذلك، لم تفقد شغفها بالحياة أو رغبتها في العطاء.

كانت في شهور حملها الأخيرة، ورغم ما تحمله هذه الفترة من تحديات، ظلّت تحرص على المشاركة في الأنشطة الاجتماعية والتطوعية التي تُقام في الأكاديمية التي تنتمي إليها. كانت هذه الأنشطة بمثابة نافذة تطل منها على عالم يعجّ بالحياة والتواصل الإنساني، فتُعطي وتُشارك دون أن تبالي بثقل الأيام أو ما قد يحمله المستقبل.

ذات يوم، خلال إحدى تلك الفعاليات التطوعية، لفت انتباهها حبل للقفز، وكأن شيئًا ما في أعماقها استدعاها فجأة. الحبل الذي بدا للآخرين مجرد أداة للعب، كان بالنسبة لها جسرًا يعيدها إلى سنوات الطفولة.

تذكرت أيامها البريئة، حيث كانت تجري في أزقة الحارات البغدادية القديمة، حيث لم يكن هناك ما يثقل روحها أو يقيد أحلامها. بابتسامة مشوبة بالحنين، اقتربت من الحبل، وبدأت تقفز بخفة وكأنها تحلق فوق الأرض. في تلك اللحظات، تلاشى كل شيء من حولها، وغرقت في ذكريات طفولتها. كانت تقفز وتدور، والبسمة تملأ وجهها كينبوع صغير أعاد للحياة نقاءها وبراءتها.

لكن الفرح لم يدم طويلاً. فجأة، شعرت بألم حاد في أسفل بطنها، كان الألم يتصاعد بسرعة، حتى أصبح من الصعب تجاهله، توقفت عن القفز، وملامح وجهها التي كانت قبل لحظات مشرقة، تغيرت. تجمع حولها بعض الحضور، وكانت من بينهم الدكتورة المقيمة في الأكاديمية. أدركت بسرعة أن الأمر لا يحتمل التأجيل، وقررت نقلها فورًا إلى مستشفى الولادة في المدينة.

# 3. الولادة

# 1979/6/25

في الطريق إلى المستشفى، كانت مشاعرها مختلطة. كان هناك قلق يتصاعد مع كل دقيقة، لكنه كان ممزوجًا بإحساس غريب ومبهم من الترقب بين الخوف والرهبة. ربما لأن الألم الذي تشعر به لم يكن مجرد ألم جسدي؛ بل كان يحمل في طياته وعدًا جديدًا، حياةً جديدةً على وشك أن تبدأ. كانت تشعر بنبضات طفلها، كأنها تخبرها أن الأمر يستحق كل هذا العناء.

عندما وصلت إلى المستشفى، كانت الغرف تعجّ بالحركة والنشاط. الأطباء والممرضات يتنقلون بسرعة وهدوء بين

الحالات المختلفة. في تلك اللحظة، شعرت أنها ليست وحيدة، وأن هناك ربما من سيهتم بها وبطفلها القادم. هذا الشعور أعطاها نوعًا من الطمأنينة. كأن القدر كان يهمس لها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

لم تكن حينها ذات خبرة عميقة وناضجة في تفاصيل الزواج، الامومة، الحياة ومكنوناتها، رغم ما كانت تحظى به من مكانة ثقافية بين معارفها.

نشأت في عائلة محافظة حجبت عنها الكثير من معارف العلاقات الزوجية، ولم تدرك ماهية العلاقة الحميمية إلا بعد أن خاضت التجربة بنفسها. الأمر ذاته انطبق على الحمل والولادة؛ إذ جاءت هذه الأحداث عليها كالعاصفة دون أي تحضير أو فرصة لاستيعابها. كانت كل مرحلة تمر بها أشبه بمحطة جديدة في قطار يسير بسرعة لا تمنحها وقتًا للتفكر أو الاستعداد

اثناء تواجدها في المستشفى، واجهتها أولى العقبات، وكانت اللغة حاجزًا ضخمًا يفصلها عن التواصل مع الآخرين. كان التعامل مع الطاقم البلغاري مسألة معقدة؛ فهؤلاء لا يتحدثون إلا لغتهم، وكأنهم يعزلون أنفسهم عن أي ثقافة أخرى. لمست العنصرية في تصرفاتهم، وهو

شعور لم يسبق لها أن عايشته في أجواء الأكاديمية، حيث كانت محاطة بالتقدير والاحترام. هنا كانت ملامحهم

جامدة، ونظراتهم تخلو من الدفء. كانوا يتعاملون معها بإهمال، ولم تتوانَ إحدى الممرضات عن شدّ شعرها وهي مستلقية على كرسي الولادة، فقط لتثبت لزميلاتها أنما هو شعرها الحقيقي وليس مستعارًا. بدت وكأنها كانت جزءًا من رهان سخيف يعكس قلة احترامهم للقيم الإنسانية، او لما هي فيه من حال.

امتدت الآلام طوال الليل، كأنها أبدية، ولم يكن بجانبها أحد يواسيها أو يخفف عنها. كان صوتها المبحوح يحمل رجاءً خافتًا نحو السماء، كلمات كانت تُلفظ بخوف لكنها بدت مسموعة لكل من حولها، إذ وصل صداها إلى إدارة الأكاديمية ومنظمة الحزب عبر قنوات غريبة، ما جعلها تدرك لاحقًا أن ما جرى ربما كان نوعًا من السلوك التجسسي المعتاد لديهم، أو تنفيذًا لأوامر، لم تفهم مغزاها.

على سرير الولادة، حيث تنبثق الحياة وسط آلام عظيمة، اجتمعت قوى الطبيعة لتشهد حدثًا مقدسًا. كانت اللحظات ثقيلة، لكنها لم تخلُ من الأمل. مع كل صرخة ألم، كانت تعيد ترتيب شتات عزيمتها لتُكمل الرحلة. أدركت في أعماقها أن هذه اللحظة ستغير كل شيء. وعندما رأت

صغيرها أخيرًا، وسمعت صراخه الذي تأخر للحظات، ظنتها دهورًا، تسامى كيانها بالهدوء، وأدركت أنها تستمع إلى صوت الكون كله وهو يطمئنها.

قبل أن تحضن طفلها لأول مرة، لاحظ الطاقم الطبي امتلاء ثدييها بالحليب الذي كان يبلل ملابسها. قرروا شفطه، وهي في حالة من الإرهاق لا تمنحها فرصة للاعتراض. وعندما أحضروه إليها أخيرًا، كان ملفوفًا بلفافة ناصعة، أشبه بحلم تجسد أمامها. احتضنته بين ذراعيها بحذر شديد، وكأنها تحمل بين يديها كنزًا لا يقدر بثمن. شعرت أن كل شيء فيها قد تغير، وأن حياتها بأكملها أصبحت مكرسة لهذا الكائن الصغير.

تفحصته بأناملها المرتعشة، تلمست وجهه الصغير الذي يشبه قصيدة من البراءة والجمال. كانت عيناها تمسحانه، تريد أن تحفظ كل تفصيلة فيه عن ظهر قلب. في تلك اللحظة، لم يعد الماضي بكل ما فيه من تحديات يعني لها شيئًا، بعد ان أشرق الحاضر مستقبلًا يحمل معه وعودًا لا حصر لها. لم يكن طفلها مجرد مولود جديد؛ بل كان رمزًا لكل جميل قادم، حياةً جديدةً بدأت مع صرخته الأولى، ودفءً يغمر قلبها كلما نظرت إليه.

تلك التجربة، التي بدأت بألم ووحدة، وانتهت بفرح عظيم، ومعانٍ أعمق مما توقعت. عرفت أن الصعوبات ليست سوى جسر يعبر به الإنسان نحو ما هو أجمل، وأن الطفل الذي تحتضنه الآن هو بداية رحلة مليئة بالأمل، تغذيها نظراته التي تحمل كل براءة العالم.

## 4. مغادرة المستشفى

لم تكن على دراية مسبقة بما يجب أن تهيئه لوليدها، ولم ينبّهها أحد إلى أهمية تجهيز حقيبته قبل دخولها المستشفى. بدا الأمر مفاجئًا، لكنها قاومت الحيرة ودوّنت قائمة تضم احتياجاته الصغيرة. كانت تستعد للمغادرة، منتظرة حضور زوجها ليعاونها بالتنسيق مع الممرضة المقيمة بالأكاديمية، كأنها تُحاول بناء عالمها الجديد بكل تفاصيله الصغيرة. حضر زوجها أخيرًا، يرافقه مترجم ليساعده في استكمال إجراءات شهادة الميلاد وتسجيل الخروج.

حينما رأته عند باب المصعد، وهي ترتدي قميص المستشفى الباهت الملوث بالدم، الذي يروي قصص معاناتها وآلامها، ابتسمت له، لتخفف عنه ما تحمله عيناه من قلق، حينما رآها على هذه الحال، لكنه بدا كأنما يحمل فوق كتفيه أثقال العالم، فجأة، لم يقوَ على الوقوف، وانهار أمامها مغشيًا عليه.

تملّكها الذعر، لكنها لم تفقد شجاعتها. حاولت أن تساعده، أن تُنادي من حولها، لكنها لم تجد أحدًا قريبًا. جلست بجانبه على الأرض، محتضنة إياه كأنها تحميه من كل ما يؤلمه. سالت دموعها بصمت، تغسل جبينه المثقل بهمومه، تدعو أن يستفيق قريبًا. أخيرًا، تحركت عيناه واستعادت ملامحه الحياة، فتأوه بصوت خافت وهو ينظر إليها نظرة اعتذار وامتنان معًا. ابتسمت له برقة وطلبت منه أن ينتظرها لتبدّل ملابسها استعدادًا للخروج.

لحظات قليلة مرت كأنها دهور، لكنها كانت كافية لتعيد ترتيب شتاتها. رغم الإرهاق الظاهر على ملامحها، كانت هناك شعلة صغيرة من الأمل والفرح تُضيء عينيها. هذه اللحظة، رغم تعبها، كانت بداية حياة جديدة، حياة تضج بالمحبة والمسؤولية.

عند وصولهما الأكاديمية استقبلهما رفاقهما في بفرح غامر. علت الأصوات بالزغاريد والأهازيج، وكأنهما في موكب عرس يكلله الحب والبهجة. شعرت للحظة أنها تستعيد شيئًا من ذاتها الضائعة وسط الأمواج العاتية للأحداث. تلك الوجوه المبتسمة، تلك القلوب الدافئة، كانت كفيلة بأن تُزيل عن قلبها كل بقايا الحزن والقلق. نظرت إلى زوجها، الذي بدت عيناه الآن أكثر بريقًا، وشعرت بارتباط عميق بينهما. آملة ان تكون هذه اللحظة بداية جديدة لهما، تجعلهما أقوى، وأكثر قربًا، وأكثر استعدادًا لمواجهة الأيام القادمة معًا.

## 5. ما بعد الولادة

كرَّست كلَّ وقتها للتكيُّف مع الوضع الجديد الذي فرضته الأمومة، اذ أدركت منذ اللحظة الأولى انها المسؤولة الوحيدة عن طفلها واحتياجاته ورعايته. لم تكن على دراية كافية بأولويات العناية بالرضيع، إلا أن خبرتها السابقة في تربية أخوتها الأصغر، (حيث كانت الأخت الكبرى المسؤولة عن رعايتهم بالكامل)، شكَّلت لها زادًا معنويًّا ومعرفيًّا. تلك التجربة التي ظنَّت أنها محض ذكريات عابرة تحوَّلت إلى عونٍ يسندها في الأيام الأولى التي أعقبت الولادة، إذ اجتازت بصبر وإصرار أولى تحديات الأمومة، على الرغم من أنها كانت تغرق في دوَّامةٍ من الوحدة

والكآبة.
لم يكن الانعزال حالًا اختياريًّا لها، بل جاء نتيجة ظروفها المحيطة. علاقاتها الاجتماعية كانت محدودةً بعددٍ قليلٍ من الرفيقات، أما الرفاق فقد اكتنفها الحذر تجنبًا لأي سوء فهم أو حساسية مرتبطة بحالة زوجها النفسية وطبيعة علاقتهما التي ازدادت جفاءً بعد الولادة، بدلاً من أن تتجه نحو الألفة والمودة كما كانت تأمل. هذه الفجوة بينهما عمَّقت شعورها بالعزلة، لكنها لم تشتكِ ولم تطلب المساعدة من أحد. وحتى حين كانت ترضع طفلها، كانت دموعها تختلط بحليبها في مشهدٍ يفيض بالشجن. ظلَّت تواجه أعباءها بصمتٍ مثقلٍ بالألم، لا تجد متنفس له لأنها كانت تقدس الخصوصية الزوجية بغض النظر عن طبيعة العلاقة بين الزوجين.

وسط هذا الحزن لاحت لها بارقة أملٍ في شخص إحدى رفيقاتها، امرأة ناضجة في العمر والتجربة، كانت بمثابة أمٍّ روحية. تلك الرفيقة عرفت معنى الألم والتضحية، فقد أجبرتها ظروف عملها الحزبي على ترك أولادها في العراق. بحسٍّ عاطفيٍّ متقد، أدركت معاناة الأم الجديدة، وتطوَّعت لمساعدتها في العناية بالمولود. لم تكن المساعدة مشروطةً بطلبٍ أو شكوى، بل جاءت بدافعٍ صادقٍ من المحبة والتعاطف، محاولةً سدَّ فراغٍ عاطفيٍّ لم يستطع

الزوج أن يملأه. كانت تلك اللحظات العابرة من العناية والدعم تمنحها قوة لم تكن تعرف أنها تمتلكها.

وسط ذلك الحزن الذي يحاصرها، كانت تشعر بأن هناك من يشاركها ولو جزءًا صغيرًا من هذا الحمل الثقيل، لكن الألم، رغم حضوره، لم يكن قادرًا على إطفاء شعلة الطموح التي تسكنها.

قررت ألا تجعل من الأمومة عذرًا لتتنازل عن حلمها في الدراسة. ورغم إعفائها من الامتحانات بسبب إجازة الأمومة، رفضت أن تكون الظروف هي الحَكم في مسيرتها. كانت تستغل كل لحظة هدوء حين ينام طفلها لتفتح كتبها، تراجع دروسها وتستعد للامتحانات.

وفي تلك الوحدة الليلية المرهقة، حيث لا صوت سوى أنفاس طفلها وصوت الأوراق بين يديها، كانت تشعر وكأنها تخوض معركة ضد الزمن. ورغم التعب الذي ينهك جسدها، كان إصرارها يضيء عتمة أيامها، كشمعة تأبى أن تنطفئ.

وحين حلَّ موعد الامتحانات، دخلت القاعة وهي تحمل على كتفيها عبء الأمومة وهموم الحياة، لكنها حملت في قلبها عزيمةً لا تعرف الانكسار. كانت الجلسات الامتحانية

بالنسبة لها ميدانًا لإثبات الذات، ووسيلةً لتذكير الاخرين بأنها قادرة على التحدي والإنجاز. اجتازت الامتحانات بإصرارٍ وحيوية لفت أنظار أساتذتها، بل وأبهرهم حين أعلنت النتائج، إذ حصدت المرتبة الأولى على كامل دفعتها. هذا التفوق لم يكن مجرد رقمٍ أو مرتبةٍ أكاديمية، بل كان شهادةً على قوة الإرادة وانتصار الروح على كل ما يثقلها.

بعد هذا النجاح، أدركت أن الأمومة ليست عائقًا، بل حافزًا على الإنجاز. كانت دموعها حينها مختلطة؛ دموع فرحٍ ممتزجةٍ بشعورٍ عميقٍ بالرضا والفخر. وجدت في تلك اللحظة أن الألم يمكن أن يتحول إلى مصدرٍ للقوة، وأن الوحدة، مهما كانت قاسية، يمكن أن تُخترق بصمودٍ وإصرار. هكذا استطاعت أن تحول معاناتها إلى طاقةٍ إيجابية، وان تكون حكايتها درسًا في الإرادة والصمود. ظلت ذكريات تلك الأيام محفورةً في قلبها، لا كذكرى ألمٍ، بل كإرثٍ من القوة والمثابرة. وبهذا، استحقت أن تكون، ليس فقط أمًّا، بل كإنسانةٍ واجهت الحياة بجرأةٍ وحققت ما بدا متعذرًا.

## 6. فستان زواج يروي حكاية

في أروقة الأكاديمية، حيث الأحلام تتسرب بين الجدران كأشعة شمس تتوسل نافذة مفتوحة، ولدت حكايات لا تُنسى، حكايات التقت فيها الأرواح لتكتب فصولًا من الفرح، بعضها امتد ليُصبح رِباطًا أبدياً جمع بين رفاق ورفيقات. وسط هذه الأجواء المفعمة بالأمل، برزت بدلة زفاف بسيطة، اشترتها إحداهن لتحتفل بزواجها في الغربة بعيدة. لم تكن تلك البدلة مجرد قطعة قماش بيضاء، بل تحولت إلى رمزٍ مشترك، رحلة تتنقل بين القلوب، لتُوثِّق لحظة استثنائية في أعمار من ارتدَينها.

كانت الفتيات، يستعرن البدلة، واحدة تلو الأخرى، ليحتفلن بها، ولو في صورة فتوغرافية عابرة، تُعيد إليهن شذرات من حلمٍ لم يكتمل، وتُزين بشيء من النقاء، ذاكرتهن، كزهرة تنبت في أرض الغربة القاحلة. كانت كل صورة تؤخذ بذلك الفستان تحمل في طياتها قصة صغيرة، أحلامًا محلقة، وقلوبًا تبحث عن معنى، ولو في لحظة مؤقتة من البهجة والفرح.

وفي زاوية من زوايا هذه الحكاية، برزت امامها رغبة لم تكن تشبه رغبات الأخريات؛ حين وضعتها الأيام على شاطئ بعيد عن البدايات، بعيد عن الأحلام الصغيرة التي لطالما داعبتها في صباها.

كانت حياتها ممتلئة بالواجبات، مثقلة بتحديات الاغتراب والغربة، ومع ذلك، بقي في قلبها ركنٌ صغير يحنّ إلى ما كانت فيه يومًا. ففي إحدى الأمسيات، استيقظت في أعماقها رغبة دفينة، رغبة لم تكن وليدة لحظتها، بل كانت تراكمًا لأمنيات مؤجلة، أمنيات تتوق لتُلامس واقعها. أرادت شيئًا بسيطًا، ولكنه يعني لها الكثير: أن ترتدي بدلة الزفاف التي أضحت أيقونة للفرح في الغربة، أن تلتقط صورة بها ومعها، ليس فقط لها وحدها، بل لتجمعها مع زوجها. كان الحلم بسيطًا في ظاهره، لكنه كان رسالة حب عميقة، رسالة فيها رغبة في إحياء شعلة قد خبت تحت وطأة الأيام وثقل المعاناة، علها تحطم ذلك الصمت الذي يفصل بينها وبين

ذاتها، وبينها وبين زوجها. طلبت منه تحقيق هذه الأمنية، كان صوتها هادئًا، لكنه مشبع برجاء عميق، كأنها تتوسل لحظة تعيد دفء الحياة إلى ما تآكل تحت غبار الغربة. تأمل الزوج وجهها مليًا، قرأ في عينيها حنينًا يُشبه اللحظة الأولى التي صارحها بحبه لها، وصدقًا لا يحتاج إلى تفسير. وافق دون جدال، ربما لأنه شعر بضرورة تلك اللحظة لها، أو ربما لأن كلماتها لامست شيئًا في أعماقه لم يكن يعلم بوجوده.

في استوديو التصوير، حيث الأضواء تُلقي على الأشياء بريقًا خاصًا، ارتدت بدلة الزفاف البيضاء. لم يكن القماش الأبيض مجرد لون، بل كان مرآةً تعكس أحلامها القديمة التي لم تكتمل بعد. كل طية، كل خيط، كانت تُعيدها إلى تلك اللحظة التي تمنت أن تعيشها يومًا. عندما وقفت

بجانبه، شعرت انها لم تكن لحظة عابرة. كان كل شيء فيها مُفعمًا بالمشاعر: البساطة التي تُخبئ خلفها عالما عميقًا وهائلًا، وفرحًا يكمن في تلك التفاصيل الصغيرة.

التقطت الصورة، لكنها لم تكن مجرد مشهد فوتوغرافي. كانت قصة مكتملة الاركان، رمزًا للعودة إلى الذات، ولإحياء الحب الذي ربما اعتراه الصمت طويلًا. الصورة الوحيدة التي جمعت بينهما في الغربة، والتي كشفت كل ما

لم يُقال: أملًا يتجدد، حبًا يعيد صياغة نفسه، وطمأنينة تُرسل عبر المسافات إلى والدتها.

كانت تلك الصورة رسالة عابرة للزمان والمكان، رسالة تقول: "أنا بخير، وأنا أجد في الغربة لحظات من الفرح، رغم كل ما يحيط بي. هناك دائمًا ما يستحق أن نعيش من أجله".

لم تكن الصورة نهاية الحكاية، بل بداية لفصل جديد. وعدٌ صامت بأن القادم، ربما يحمل فرصًا أخرى للحب، للمواقف التي تصنع الذكريات الأعمق. وفي قلب كل ذلك، بقيت تلك البدلة البيضاء رمزًا خالدًا، شاهدًا على قدرة اللحظات البسيطة أن تمنح الحياة معنى يفوق الكلمات.

## 7. إبرة لخيط الذكريات

في لحظة إشراق، استيقظت روحها، لتختلس وقتًا لها من مشاغل الأمومة اليومية، رغبة في استعادة وهج موهبتها الدفينة. كانت الخياطة نغمة قديمة تعزفها أناملها منذ نعومة أظفارها، والآن حان وقت عودتها للرقص على أوتارها. بخيوط من حرير الأحلام وإبرة مغموسة في عطر الطموح، فكرت في خياطة فستان يليق بحفلة التخرج المرتقبة.

في أروقة الذاكرة، تتراقص خيوط الماضي، حيث نسجت أنامل الطفولة براعة الخياطة. كانت جارتهم بوابة سحرية

إلى عالم يفيض بالجمال والإبداع، حيث كانت تحول الاقمشة الملونة إلى قصائد حية ترتديها الأجساد. كانت عيناها تلتهمان كل حركة وغرزة من انامل جارتها الخياطة، لتثبّت داخل روحها جذور هذا الفن الجميل، وها هي اليوم تستعيد نداوة تلك اللحظات الثمينة.

في لحظة إلهام سامية، انبثق الشغف من أعماق روحها كنبع صافٍ. بعين ثاقبة وقلب خفاق، انتقت قطعة قماش متواضعة الثمن، لكنها غنية بالوعود. كانت ألوانها أشبه بألحان فرح تعزفها أصابع الربيع على أوتار الحياة، ونقوشها حكايات صامتة تروي قصص البساطة المتوهجة بوهج الأناقة.

حين غفا طفلها، مستسلماً لأحلام الطفولة البريئة، جلست في محرابها المتواضع، غرفتها الصغيرة، محولةً ساعات الفراغ إلى ملحمة إبداعية تتحدى الملل وتعانق الشغف. بين يديها، تحولت الإبرة إلى عصا سحرية، والخيط إلى شعاع من نور يرسم على القماش أحلاماً وآمالاً.

انكبت متلهفة على تجسيد إرادتها، مستخدمة ولعها كوقود لرحلة الابتكار رغم مواردها البسيطة ومحدودية ظروفها.

كانت هذه اللحظة ليست مجرد بداية لصنع ثوب، بل هي ولادة جديدة لذاتها التائهة، التي كادت تذوب تحت أعباء الأيام، وتأكيد لقدرة الروح على الازدهار حتى في أكثر الظروف عناءً. بدأت تخيط بخطى وئيدة، وكأنها ترمم نسيج حياتها الممزق. كل غرزة كانت وشماً تحاكي غربتها الصامتة، ووحدتها الثقيلة. بأصابعها، كانت تنسج أحلاماً جديدة لمستقبلٍ ظلّ مجهولًا.

وحين اكتمل الفستان، بدا كأنه لوحة نسجتها أنامل الحلم، تفيض رقةً وجمالاً، تحمل في طياتها نبض الروح ودفء الذكريات.

عندما ارتدته لأول مرة، شعرت وكأنها تعيد اكتشاف ذاتها التي كادت تتلاشى في زحمة المسؤوليات. كان الفستان أكثر من مجرد قطعة قماش، بل هو عمل فني، يعكس بساطتها الممزوجة بحكاية تُروى بلا كلمات، وشهادة على قدرتها بتحويل الخيوط البسيطة إلى تفاصيل نابضة بالحياة، كأنها شهادة على رحلتها العميقة من الوحدة إلى الإبداع، ومن الإرهاق إلى البهجة، ومن عتمة العزلة إلى انعتاق الروح، فكل غرزةٍ فيه كانت نبضاً يعبر عن شغفها، وكل طيّة نسجتها بيدها تؤكد عزيمتها التي لم تدعها تخضع لليأس، بل قاومته بنبض الحلم وإصرار الروح. فهو لم يكن

مجرد مظهر خارجي، بل كان انعكاسًا لجمال داخلي وأمل متجدد يرفض أن ينطفئ.

حينما سارت في أروقة الأكاديمية تدفع عربة طفلها، كانت كأنها قصيدة تتجسد أمام الأعين، يتراقص حولها عبق الإبداع وسحر الأناقة. خطواتها هادئة، لكنها تروي قصة نسجتها بخيوط الإصرار والصبر.

كل من رآها بالفستان شعر وكأنه أمام لوحة فنية تتحدث عن خفاياها. عيون الحاضرين كانت تلاحقها بدهشة وإعجاب، وكأنها نجمة في سماء تزداد بريقًا كلما تقدمت. وبين كل تلك النظرات، بدت عينا إحدى الأستاذات، تتألقان بشعورٍ صادق من الانبهار، وتساءلت بلهفة يشوبها الإعجاب: ـ

**"من أنجز هذا الفستان الجميل؟"**

وبابتسامة تحمل مزيجًا من التواضع والاعتزاز بعملها، وبصوت هادئ تنساب منه نبرة فخرٍ خجول: اجابت: ـ

**"لقد صنعته بيدي".**

رفعت الأستاذة حاجبيها وسألت مستفسرة: ـ

**"ودون ماكينة خياطة؟"**

أومأت برأسها، قائلة بثقةٍ: ـ

**"أجل... غرزةً إثر غرزة".**

تأملته بإمعان وكأنها تحاول فك شيفرة الإبداع المنغرسة بين ثناياه، ثم سألتها بنبرة يتخللها رجاء خفي: ـ

**"هل يمكنك أن تخيطي لي مثله؟"**

ابتسمت مرة أخرى، مختارة أن تجيبها بعملها، طلبت منها أن تنتظر بضع دقائق. كانت تلك اللحظات تحمل في طياتها أكثر مما يبدو على السطح. لم تكن مجرد دقائق عابرة، بل كانت امتدادًا من الغرز التي خاطتها بحب لرحلة طويلة من العزيمة والكفاح، ومع ذلك، لم ترى في طلب الأستاذة مجرد فرصة لإظهار موهبتها أو تحقيق مكسب مادي، لقد كان شيئًا أعمق من ذلك بكثير.

حين عادت قدمت الفستان هدية، وعلى ثغرها ابتسامة تحكي عن قلب طيب ونفس كريمة. وهي تعلم انها قد تخلت عن ثوبها لحفل التخرج.

## 8. الطير يرقص مذبوحًا من الألم

في لحظة وداع لبلغاريا كانت أقرب إلى مرآة تنعكس عليها تفاصيل الزمن، وتتداخل فيها أصداء الماضي بتوقعات المستقبل في مشهد يضج بالمشاعر المتناقضة. لقد كشفت لها صورة مصغرة لوجودها، الوجود الذي بدا لها بمثابة خلاصة لكل ما مرت به وبداية لكل ما ينتظرها. جاء قرار الحزب بالانتقال إلى اليمن الجنوبي، انتدابًا للعمل وخدمة للتجربة الاشتراكية الناشئة هناك. وكان هذا التكليف إضافة أخرى إلى سجل رحلتها الطويلة، المحملة بالآمال

الكبيرة، والتوقعات المثيرة، رغم ثقل الهموم داخلها. كانت ليلة الوداع في الأكاديمية مزيجا من الاحتفال والترقب والرهبة، اختلطت فيها أصوات الموسيقى الصاخبة مع رائحة ونكهة الطعام النفاذ وأضواء القاعة الساطعة، مما أضفى على المشهد بريقا فريدا وغريبًا، كأنها لوحة سريالية، او كرنفالاً موشى بلحظات احتفالية لا تنسى.

بعد كلمات الوداع التي تحدث بها عميد الأكاديمية، بدأت الدبكات الشعبية البلغارية، تلك الرقصات التي اشعلت الحضور بالحيوية والنشاط والحبور واضاءتهم بالمرح وعطرتهم بالبهجة، كنسيم شذي يتخطى حدود التعبير.

انخرط الجميع في الدائرة، باستثناء قلة وقفوا على أطراف القاعة يراقبون بعينين مفعمتين بالاستمتاع أو التأمل. هي وزوجها كانا ضمن هؤلاء، صامتين في ركن هادئ، حيث تتشارك نظراتهما أسئلة لم تُسأل، وتغرق أحاديثهما في صمت أعمق من كل ما يمكن قوله.

تقدم العميد مبتسمًا، حث المجموعة الصامتة على المشاركة. التفت إليها وإلى زوجها، ملتمسًا منهما الانضمام. بادرت بالاعتذار بلباقة، معللة بأن عليها تفقد طفلها، النائم في القاعة المجاورة، بين الحين والآخر. لم

تكن تتوقع حينها أن يبادر زوجها، ببرود ظاهري وإصرار خفي، ليقول: ـ

**"سأعتني بالطفل"**

صدمتها تلك الجملة غير المتوقعة منه وأدهشتها بقدر ما أربكتها. شعرت للحظة أن الأرض تهتز تحتها، وكأنها أُجبرت على مواجهة شيء أعمق من مجرد رقصة عابرة، شيئًا طالما تهربت منه.

وجدت نفسها تسير نحو حلقة الرقص، كما لو أن قدميها تتحركان بإرادة غير إرادتها. لم تكن تعرف شيئًا عن قواعد الرقص، ولكنها شعرت بأنها تُساق إلى هناك لا لتؤدي عرضا، بل لتطلق العنان لشيء مكبوت في أعماقها. وسط الحلبة، مع أولى الخطوات المرتبكة، أغمضت عينيها، مستسلمة للحنٍ أشبه بشريط حياة يمر أمامها. في تلك اللحظة، لم تكن ترقص، بل كانت تبوح. كل خطوة، كل التفاتة، كانت كشفًا مستترًا عما حملته روحها طويلاً. رقصت وكأنها تفرّغ أثقال سنينها دفعة واحدة. تداعت أمامها صور الأيام التي نقشت على قلبها ندوبًا لم تلتئم بعد. استعرضت ماضٍ أرهقها بتحدياته، وحاضرًا يثقلها بآلامه، ومستقبلًا يكتنفه الغموض. للحظة شعرت بأنها تطير في فضاء لا نهاية له، تحررت من المكان ومن الزمن. مع

تسارع الإيقاع، احست بأنها تنفصل عن الجسد لتسبح في فضاء لا يحده سوى إيقاع قلبها المتسارع. نبضات قلبها تتسابق مع الموسيقى، وأنها تتقاطع مع كل قصة كانت تسكنها. عذابات الغربة، قسوة الأحلام المؤجلة، وحتى فرحة الأوقات العابرة التي كانت تخفي تحتها حزنًا دفينًا. كل ذلك انفجر في حلبة صغيرة، تحت أنظار ممن حولها الذين توقفوا عن الرقص واكتفوا بالمشاهدة مندهشين.

كانت مغمضة العينين، وحين فتحتهما، كان الجميع يصفق بإيقاع متناغم مع الموسيقى، وكأنهم يشهدون مشهدًا لا يُنسى. عيونهم حملت شيئًا أشبه بالإعجاب، وربما الحيرة. توقفت فجأة، ألقت تحية خفيفة عليهم، ثم انسحبت بخفة، وكأنها تحررت من كل ما كان يثقلها.

لكن تلك الخطوات التي اخذتها للخارج لم تكن عادية. شعرت وكأنها تسير في فضاء جديد، خفيف وواسع. بدا لها أن كل تلك الصخور الجاثمة على صدرها قد سقطت، أصبحت روحها أخف، حرة طليقة، أشبه بطائر حلق عاليًا بعد سنين من القيد. تلك الرقصة كانت شيئًا يشبه الاعتراف، طقسًا سريًا لمصالحة الذات، حيث واجهت كل مخاوفها وآلامها، ثم تركتها تسقط عنها واحدة تلو الأخرى.

حين عادت إلى حيث كان زوجها ينتظر، لم يتحدثا، تبادلا نظرة طويلة فقط، نظرة كانت كافية لتُقال فيها كل الكلمات التي لم تُنطق. كانت النظرة بينهما أشبه برسالة غامضة تحمل مزيجًا من العتاب والتفهم.

لم تكن تلك الليلة مجرد وداع للأكاديمية، بل وداع لجزء من الذات. كأنها قالت لنفسها وللعالم: "ها أنا أرقص كالطير مذبوحة من الألم، ولكنني سأظل أطير".

## 9. المرض...

الإجراء القانوني في الأكاديمية يتطلب فحصًا طبيًا شاملًا لكل الملتحقين بها. لكنها لم تكن تعلم أن هذا الفحص سوف يكشف عن أسرار عميقة ستُثقل كاهلها. جاءها المترجم الذي رافق زوجها لإجراء الفحص بخبر مربك، ألقى عليها ظلالًا من الحيرة والقلق. أخبرها أن نتائج الفحص تشير إلى أن زوجها يعاني من مرض خطير. تساءلت بوجل:

ـ **"هل هو ذلك الصداع المزمن الذي يلازمه منذ الصِّبا؟"**.
هزّ المترجم رأسه نافيًا، وأجاب:

ـ **"لا، الأمر يتعلق بشيء في صدره أو قلبه، كما فهمت أثناء الترجمة. إنه أمر جدي ويستوجب الاهتمام"**.

شعرت بأن الأرض تميد تحت قدميها. حاولت أن ستقصي من زوجها حقيقة ما قيل، لكنها قوبلت بصمت كالجدار الصلد. كان وجهه مغلقًا، وعينيه زائغتين وكأنهما تهربان من مواجهتها.

ازداد الجفاء بينهما، وتحول البعد إلى نفور ملحوظ حتى لمن حولهم. كان الجميع ينظرون إليها بعين مليئة بالأسئلة. كانت تلك النظرات كسكاكين تخترق قلبها، لكنها قررت أن تتركه على حاله، معتقدة أن هذا الصمت الجارح هو طريقته في مواجهة المرض الذي يأكل روحه.

ومع مرور الأيام، تفاقم الوضع. لم يعد السهر، بالنسبة له، مع الرفاق عادة عابرة، بل صار طقوسًا يومية للهروب من مواجهة الواقع. كان يقضي معظم أوقاته مع أحد الشباب المتزوجين حديثًا، والذي كان بدوره غارقًا في كآبة حادة، والذي لم يفتأ يشكو من زوجته الشابة الجميلة، ومن تصرفاتها التي يرى فيها سبب شقائه. بدا أن هذا الشاب وجد في زوجها مرآةً تعكس أوجاعه، ووجد زوجها في تلك المرآة ملاذًا لتقاسم الهموم والشكوى. كانا يجلسان معًا لساعات طويلة، وكأن كل منهما يغرق الآخر في بحيرة من الحزن والأسى.

أما هي، فقد كانت تحاول أن تستوعب ما يحدث، وأن تبني صرحًا من الأمل وسط الركام. لقد ظنت أن قدوم طفلهما سيعيد بعض الدفء إلى حياتهما الباردة. لكنها، للمفارقة، وجدت أن الأمور تزداد سوءًا مع كل خطوة جديدة نحو المستقبل. بدا وكأن الطفل الذي انتظرته ليكون واحة الأمل، أصبح عبئًا إضافيًا على كاهلهما المثقل.

لم يكن الأمر مجرد مرض جسدي ينهش زوجها، بل كان مرضًا روحيًا أيضًا. غابت الابتسامة عن وجهه، وحلت محلها نظرات خاوية تتجنب الالتقاء بعينيها. كانت تشعر وكأنها تقف على حافة هاوية، لا تدري إن كانت ستقع أم ستُمسك بشيء يُنقذها في اللحظة الأخيرة.

كانت تستعيد في ذهنها تلك اللحظات الأولى التي جمعت بينهما، حين كان قلبه ينبض بالحياة، وروحه تفيض بالحنان. أين ذهب ذلك الرجل الذي وعدها بأن يكون ملاذها الآمن؟ أين اختفت تلك الأحاديث التي كانت تمتد لساعات طويلة عن الحب عن المستقبل والأحلام؟ لقد تحدت أهلها والعالم كله لأجله.

في خضم هذه العاصفة، قررت أن تصمت هي الأخرى. ربما كان الصمت هو اللغة الوحيدة التي يمكنها أن تتحدث بها معه الآن. لم يكن هناك مجال للمواجهة، فكل كلمة كانت

تُقابل بجدار من اللامبالاة. تركته يعيش في عالمه الخاص، محاطة بأسوار من الوحدة والكآبة.

لكنها، رغم كل ذلك، لم تفقد أملها بالكامل. كانت هناك لحظات صغيرة، عابرة، تلوح فيها بارقة من الأمل. لحظة يبتسم فيها طفلهما، فتلمح في عينيه وميضًا من الحنين. وكأنه يريد أن يقول شيئًا لكن الكلمات تعجز عن الخروج.

كانت تتشبث بهذه اللحظات القليلة كمن يتمسك بحبل واهٍ فوق بحر هائج.

## 10. دعوة للعشاء

ما زالت تذكر تلك الفرحة التي غمرتها حين دعاها إلى العشاء في أحد المطاعم القريبة من الأكاديمية. نبض قلبها حينها بشوق قديم، توقًا للحظات دافئة افتقدتها طويلًا، علّها تعيد شيئًا من الحياة إلى ما خبا بينهما من مودة. رتبت أمر صغيرهما بعناية، وتركته في رعاية إحدى الرفيقات، ثم انهمكت في انتقاء ملابسها، كأنها تستعيد أنوثتها التي نامت تحت ركام الأيام. تأنقت بكامل زينتها، لا لتبهر من حولها، بل لتهمس له من خلال حضورها :أنا هنا، كما كنت، وكما اشتقت أن أكون.

حين دخلا المطعم، لم تستغرب ازدحامه بالعائلات، وكأن لقاءهم ذاك قد تم الاتفاق عليه ضمنيًا مع الآخرين، فالكثير منهم اعتاد السهر والتلاقي هنا كما يبدو، ومع أنها كانت تأمل أن ينفردا بطاولة تحتضن حديثًا غاب طويلًا، حديثًا يعيد نبض القرب ويكسر صمت الجفاء، إلا أنه اختار أن يجلسا مع صديقه وزوجته، ذلك الرفيق الذي طالما شاركه الهم والشكوى. شعرت حينها أن بينهما اتفاقًا غير مُعلن، وكأن لسان حال كل واحد منهما يقول :ها أنا أحاول، فاشهدوا!

ورغم كل شيء، لم تُعر للأمر أهمية. أرادت فقط أن تستمتع بتلك اللحظات القليلة معه. نسيت العالم من حولها، وانشغلت به وحده. كانت تنظر إليه برضى، بعينين تشعّان بالحب، وكأنها تراه لأول مرة. ابتسمت له بصدق، تود أن تهمس له بحضورها، بحبها، بامتنانها لكل لحظة قرب. كانت تأمل فقط بكلمة، ولو بسيطة... كلمة حب أو إعجاب... كلمة تُعيد لروحها دفئًا اشتاقت إليه كثيرًا، حتى كادت تنساه.

في طريق العودة، امتدّت يدها إليه في محاولة واعدة للتقارب، علّها تُرمّم ما تهشّم من الصلة بينهما، غير أنه سحب يده على الفور، كأنّ لمستها قد لدغته. انبرى يُؤنبها بكلمات جارحة، أشاعت في قلبها شعورًا جارحًا

باللاجدوى، وأنها لا شيء يُذكر في عالمه الموحش. التزمت الصمت، فقد خانتها الكلمات، وتكفّلت الدموع وحدها بالتعبير عن خذلانها وحزنها المستتر، وواصلت، وهي تُغالب عبراتها على امتداد الطريق.

وحين اوى إلى غرفته، انكمش في ركن وحدته المألوف، كما لو أن العزلة وطنه الأثير. احتضن كأسه وسيجارته كأنهما طوقا نجاة يتشبث بهما في بحر عالم يضيق به صدره. لم تكن أدوات ترفٍ، بل كانت طقوس خلاص من واقع أثقل كاهله، وملاذًا واهيًا من عجزٍ لم يملك له دفعًا.

أما هي، فلم يُسعفها الليل لأن يغمر جرحها بنعاس. كانت العاصفة قد هدأت قليلاً، لا في السماء، بل في صدرها، فعادت إليه... تحمل طفلهما بين يديها كما لو كانت تحمل قلبها ذاته، يسوقها رجاءٌ مستتر وقلق لا يعرف السكون، لعلها تلقي نظرة تطمئن فيها عليه، أو تهمس ببعض دفء في أذنه المنطفئة.

رأته مستلقيًا على السرير، ساكنًا كمن أنهكته الحرب مع نفسه. اقتربت بخطى مترددة، يتنازعها الحذر والخوف عليه، تخشى أن توقظه من عالمه المعتم... أو تؤذيه دون قصد. غمرته بالغطاء برفق، كما اعتادت، دومًا، أن تكون

حارسةً لصحة جسده، وإن تهشّمت روحها مرارًا على أعتاب لا مبالاته.

## 11. ومضة تذكر

في تلك اللحظة، ومضت في ذاكرتها صورة قديمة، كأن الزمن استدار، محلقًا بها إلى بغداد... ليلة دعاهما فيها جارهما الساكن في الطابق الأرضي. كانت شقة الجار عالماً مغايراً تمامًا لعالمهما، عالمًا ينبض بالبذخ والتفاخر، كأن صاحبه يصارع خواءه الداخلي بإغراق المكان في مظاهر الثراء والزهو. رجل ذو تكبر ومباهاة، يسكن مع والدته المسنّة، تحيط به هالة مصطنعة من التبجح والعظمة. تزوّج حديثًا، ولكن لم يمضِ أسبوع على زواجه حتى هجرته زوجته، لأسباب بقيت حبيسة أسرار حياته الغامضة.

أثاث منزله يروي حكاية رجل يطارد الوجاهة بأي ثمن، يتوسّل الأناقة لتجميل الفراغ، ويستعرض رفاهيته من خلال دعوات الاخرين المتكررة إلى موائد فخمة، عطلة نهاية كل أسبوع. ربما كان يبحث في تلك الولائم عن شراكة مؤقتة تُعفيه من مرارة العزلة.

في كل مرّة، وحين كانت تراقب زوجها بقلق متصاعد كلما دار الكأس بينه وبين المُضيف. كان في عينيها سؤال لا يُقال، وخوف يسكن قلبها كلما رأته ينساب مع الشراب نحو عالم لا تعرفه ولكنها تهابه... لم تكن تخشى عليه من السكر فقط، بل من الغياب، من أن يتحول إلى شخصية غريبة الاطوار لا يؤنسه رجاؤها، ولا تُفيق روحه لنداء حبّها. كانت تحبه حدّ الوجع، وتهتم به كما لو أن أنفاسه من نسغ حياتها.

كان المُضيف يلاحظ هذه النظرات المشحونة، يبتسم بسخرية ويتلذذ بحيرتها، ثم يوجّه كلماته لزوجها، قائلاً بنبرة لا تخلو من السخرية: "**لديك زوجة شابة، تحبك وتخاف عليك، كأنك كنزها، فلماذا تغرق في الكأس؟**" لكن الزوج، حتى في لحظات سكره الأكثر حدة، كان يبقى صامتًا، مطأطئ الرأس، غائبًا عن حاضره، كأنّ روحه أُقصيت إلى عالمٍ لا مكان لها فيه، كان يغلق أبواب روحه

في وجهها كلما حاولت التسلّل إلى أعماقه، كأنها ظلٌّ يحوم حوله، يراه ولا يمنحه حضورًا. وهي، في كل ذلك، تظل واقفة كزهرة في مهبّ عاصفة، تتشبث بجذورها المرتبطة به، رغم عتو ريح فتوره، تحبّه برغم انكسارها، وتخشى أن يكون حبّها هذا، كلّما اقتربت، يدفعه إلى الابتعاد أكثر. كانت تُحبّ رجلاً يتوارى عنها كلّما حاولت أن تحضنه بقلبها.

وفي النهاية، كانت تدرك أن الحب الحقيقي لا يزول بسهولة، وأن الألم قد يكون أحيانًا هو الثمن الذي ندفعه للحفاظ على ما نحب. لقد اختارت أن تبقى، رغم كل ما عانته، لأنها آمنت بأن خلف هذا الصمت والنفور، يكمن رجل يعاني بصمت، ويحتاج إلى من يشاركه هذا العبء الثقيل.

ربما لن تفهم أبدًا سر شكواه ومعاناته ومرضه الذي لم يفصح عنه، وربما لن تتمكن من إزالة الجدار الذي بناه حول نفسه، لكنها كانت تؤمن بأن الحب الذي جمعهما يومًا لا يزال هناك، مختبئًا بين أنقاض هذا الألم. كان أملها أن يأتي يوم يستطيع فيه أن يواجه مخاوفه، وأن يعود إليها... ذلك الرجل الذي أحبته يوما بكل جوارحها.

لقد كانت رحلة شاقة، لكنها علمتها: أن الحياة ليست دائمًا كما نخطط لها، وأن الحب الحقيقي هو ذاك الذي يظل صامدًا رغم كل العواصف.

ظلت ذكريات تلك الأيام محفورةً في قلبها، لا كذكرى ألمٍ، بل كإرثٍ من القوة والمثابرة.

# الفصل الثالث

## اليمن

## أيلول 1997

## 1. موديَه

حطَّ بهم الترحال في أرض اليمن، ولم يكن ذلك اختيارًا حرًا، بل قرارًا صادرًا عن الحزب، لا يقبل نقاشًا ولا يفسح مجالًا للتردد. كان زوجها ممن لا يعارضون، ولا يبدون امتعاضًا حين يتعلق الأمر بتوجيهات الحزب، فقد نذر حياته لقضية آمن بها حتى العظم، وأخلص لها إخلاص العابد المتبتل في محرابه. أما هي، فقد ورثت عنه هذا الولاء، لكنه، ولاءً مزجه وعيٌ عميقٌ وإحساسٌ مرهفٌ بالقدر الذي ساقها إلى هذه البقعة من العالم، حيث وجدت نفسها فجأة تقف على تخوم حياة لم تكن تتخيل أنها ستعيشها يومًا.

لم يكن في مديرية "موديه" التي استقروا بها ما يُغري بالبقاء، ولا حتى ما يُعين عليه. كل شيء فيها بدا أشبه بمكابدة مستمرة، بدءًا من الماء، الذي لم يكن يصل إلى شقتهم المتواضعة في الطابق العلوي، واضطرارهم إلى جلبه يوميًا من الحنفية العمومية التي يزدحم حولها الأهالي كما لو كانوا يتزاحمون على جرعة حياة. الكهرباء كانت تنقطع مرارًا، تاركةً خلفها ليلًا طويلًا من العتمة والصمت والحرارة اللاهبة التي تُطبق على الأنفاس كَيَدٍ خفيّةٍ تخنق الأرواح قبل الأجساد.

الشقة ذات الغرفتين لم تكن أكثر من مساحة خالية إلا من بعض أدوات الطبخ وفرش النوم البسيط، وحتى الملابس لم يكن لها من مأوى سوى حبل ممتد داخل الغرفة، تعلّق عليه ثيابهم القليلة كأنها شاهدة على حياة التقشف التي فُرضت عليهم. كل شيء كان يوحي بالنفي، لكنه نفي لا بد من التأقلم معه، ولا مفرّ من جعله مكانًا يُحتمل.
ورغم كل هذا، لم يكن الشقاء وحده سيد الموقف، بل كان هناك شعور آخر، ذلك الإحساس العميق بأنها تعيش تجربة فارقة، وأنها في قلب الحياة كما لم تكن من قبل.
كانت تدرك، أنَّ ما تمرُّ به ليس مجرد اختبار للصبر، بل هو امتحان للجوهر، للقدرة على صنع المعنى وسط قسوة الظروف. لم تندب حظها، ولم تتراجع أمام الصعوبات، بل

كانت ترى في كل ذلك فرصةً لاكتشاف قوتها الداخلية، تلك التي لم تكن تعلم بوجودها حتى فرضت الحياة عليها هذا التحدي.

كانا يعملان معًا في التدريس، براتب زهيد يُصرف بالعملة المحلية، تعبيرًا عن التضامن بين الحزب والدولة اليمنية في تجربتها الاشتراكية الوليدة. بالكاد كان الراتب يكفي لسد احتياجاتهم، لكنه كان كافيًا ليشعروا بأنهم يؤدون دورًا في بناء شيء أكبر منهم. كانا يتناوبان أوقات العمل لرعاية طفلهما الصغير، فتارةً تكون هي في المدرسة، وتارةً هو، وكلاهما يحمل شعورًا مزدوجًا من الإرهاق والامتنان.

في أعماقها، كانت تعرف أنها لن تنسى هذه الأيام، ستظل محفورة في ذاكرتها، ليس لأنها كانت قاسية، بل لأنها صقلتها كالنار التي تنقّي الذهب. كانت تنظر إلى الليل اليمني الطويل، وإلى النجوم التي تبدو قريبة حدّ اللمس، وتقول في نفسها: ـ **"هذا ليس منفى، هذه ولادة جديدة"**. كانت تدرك أنَّ الحياة لا تمنح دروسها إلا لمن يملكون قلوبًا تتسع لفهمها، حتى في أحلك الظروف.

وجدت، في الشقة المجاورة، حيث يقيم مأمور المديرية مع أسرته ووالدته، شيئًا من الألفة وسط غربتها القاسية. كانوا يحيطونها بعناية صادقة، يتفقدون حالها بين الحين والآخر،

يحاولون أن يخففوا عنها وطأة الوحدة الثقيلة، خصوصًا مع طفلها الرضيع. لم تكن تلك الرعاية مجاملة عابرة، بل كانت نابعة من قلوب طيبة، لم تسعَ إلى استغلال هذه الطيبة كما فعلت بعض عائلات الرفاق، الذين لم يترددوا في توظيف. مثل هكذا الجيرة الا كوسيلة لتحسين أوضاعهم.

أما هي، فقد حاولت أن تهزم الوحشة بالمعرفة، تغوص في الكتب، تنهل من صفحاتها ما يملأ فراغ أيامها، تكتب الملخصات، تدرس الفلسفة والسياسة، وكأنها تحاول أن تبني جسرًا بين وحدتها وإثبات ذاتها. كانت تجد في الحروف ملاذًا، وفي الفكر عزاءً. تلوذ بالمطالعة حين يخيم عليها الصمت الثقيل، ذاك الذي كان يتضخم كلما ازدادت المسافة بينها وبين زوجها اتساعًا، والذي كان يزداد انعزالًا، وانغلاقًا على نفسه، وكأن بينهما حاجزًا شفافًا تراه ولا تستطيع اختراقه.

كان كلما استلم رسالة من أهله، ازداد شروده، ووجعه، لكنها لم تكن تعرف شيئًا عما تحتويها، إذ كان يخفيها، عنها بعناية، يطويها سريعًا، يدفنها في جيبه كما يدفن معها كل ما تحمله من اخبار مؤلمة او عتاب ولوم. كانت تدرك، رغم صمته، أن الكلمات المحبوسة في تلك الرسائل كانت تصب زيت العتاب فوق نار روحه المتأججة. كانت تراقبه حين يشد "عصابة" رأسه بقوة، يحاول كبح صداعه

المزمن، وكأن الألم في رأسه صورة مجسدة لعذاب روحه. كان مغلقًا كحصن منيع أمامها، بينما ينفتح على الجميع سواها.

## 2. ظلال من الكآبة

حاولت، مرارًا، أن تهدم الجدران بينهما، أن تقترب، أن تلمس ذلك الجرح العميق الذي يسكنه، لكن في كل مرة كانت تصطدم بجدار أقسى، بحاجز أشد صلابة، حتى بدا لها أن محاولاتها لم تكن إلا رياحًا تصطدم بصخور صماء لا تلين.

تفاقمت حالتها حتى باتت ظلال الكآبة تلازمها كظلها، متشبثة بروحها كغيمة ثقيلة تأبى الانقشاع. لم تعد الأوجاع تسكن في أعماقها فحسب، بل تجاوزتها إلى الجسد.
تكررت نوبات الإغماء حتى باتت حبيسة أسرّة المستشفى الوحيد في المديرية، ذاك الذي يديره طبيب هندي مقيم مع

زوجته، كانا مثالًا للرقة واللطف، يحيطانها بعناية امتزجت بحنوٍ صادق، كأنهما أرادا أن يرمِّما ما انكسر في داخلها. لم تقتصر رعايتهما على حدود المشفى، بل امتدت إلى دعوتها وزوجها إلى مائدتهما المتواضعة في بيتهما الصغير، وكأنهما يحاولان، بذكاء غير مباشر، أن يبعثا الدفء في ذلك الجفاء الذي صار يحيط بهما كسور بارد، أن يذكّراهما بأن الاغتراب ليس في الأرض وحدها، بل قد يتسلل إلى الأرواح إذا تُركت نهبًا للبعد والصمت.

حين لبّت وزوجها الدعوة، كان الجلوس في ذلك البيت البسيط، كمن يفتح نافذة على ماضٍ كان قريبًا وبات بعيدًا كحلم، هناك، تحت ضوء المصابيح الخافت، عادت الصور القديمة تنبض أمام عينيها، وكأن الزمن قد سحبها من واقعها القاسي ليعيدها إلى لحظات الحب الأولى، حين كان حضورها وحده كافيًا ليملأ حياته بالفرح، حين كان يحملها بين ذراعيه لا لضعفها، بل حبًا ودلالًا، كطفل مدلل يخشى عليه حتى من النسيم.

كان يستبطنها، فيستبق بَوحها لتلبية احتياجاتها قبل أن تنطق بها، كان يراها بعيني عاشق لا يرتوي. كيف تبدّد كل هذا؟ كيف ذابت تلك التفاصيل الجميلة في شقوق البعد والجفاء؟ هل يمكن لسنتين فقط ان تكونا كفيلتين بتحويل ذاك الرجل

المحبّ إلى آخر لا تعرفه؟ رجل يشيح بوجهه عنها كلما حاولت أن تمد إليه يد، رجل صار يهرب منها بدل أن يحتضنها.

خذلتها كل محاولات استعادته، استنزفت صبرها وكرامتها وكل ما في قلبها من رجاء، لذا لم تجد إلا صوتها لتبث فيه شقاءها، فكانت تغني... تغني كما لم تفعل يومًا، تلقي بصوتها على مسامعه كرسالة حب وعتاب ألم وتوسل، تتوسل أن يعود، أن يلتفت، أن يتذكر، لكنّه كان يسمع ولا يريد ان يفهم، يدير ظهره كأنما يمعن في هجرها عمدًا، وكأن صوتها الذي كان يومًا عشقه صار عبئًا يهرب منه إلى الخمر والسهر والضياع، حتى أصبحت مجرد طيف يمرّ في حياته بلا أثر، ووجودها قربه لم يعد سوى غربة أخرى تضاف إلى غربتها الكبرى.

## 3. نوايا مريبة

في ليلة موحشة، حيث سكنت الأصوات إلّا من أنفاسها المتعبة وهمسات الليل الخافتة، كانت تحتضن صغيرها في الفراش، متأملة وجهه البريء الذي لا يعرف من الدنيا سوى الأمان بين ذراعيها. فجأة، اهتز سكون الليل بصوت الباب يُفتح ببطء، ليطل منه شبح مجهول، يخطو إلى عتمة الغرفة كأنه ظل ينسل بخفة اللصوص. تسارعت نبضاتها، تجمدت في مكانها لحظة، ثم صرخت بذعر: **من هناك؟!** قفزت من فراشها، وعيناها تجولان في الظلام، تبحث عن ذاك الطيف المريب، لكن ما إن تقدمت حتى كان قد تلاشى كما لو أنه لم يكن. شعرت برجفة تعبر جسدها، ارتجفت

أصابعها وهي تمسك بروب النوم، ثم هرعت إلى السطح، حيث كان زوجها يتسامر مع أحد الرفاق. تقدمت نحوه بلهفة يملؤها الذعر، وقالت بصوت مرتعش:

**-"من كان معك هنا؟! من الذي تسلل إلى غرفتي؟!**

التفت إليها زوجها باستغراب، قائلا: **أنه الرفيق فلان.** شهقت! وعيناها تبرقان بمزيج من الغضب والخوف. حكت له، وصوتها المختنق بالعبرة، كيف أن ذاك الرجل اقتحم محرابها، وكيف تجرأ على تدنيس حرمة بيتهم بنوايا مريبة. للحظة، خيم الصمت بينهما، ثم رأته يشد على قبضته، ويهب واقفًا كالإعصار، وعيناه تقدحان شررًا. لم ينطق بكلمة، لكنه اندفع مسرعًا، كأن نيرانًا تحترق في صدره، قاصدًا حيث يقيم الضيف الذي غدر بالثقة.

رجع ليخبرها، انه حين وصل إليه، وجده ممددًا على فراشه، متظاهرًا بالنوم، لكن أنفاسه المضطربة، التي كانت تتلاحق بشكل غير طبيعي، فضحته، كما لو أنه كان يركض هاربًا من شبح جريمته التي لم تكتمل. أخبرها، انه وقف هناك، ينظر إليه بعينين مليئتين بالخذلان، بالحيرة، بالغضب المكتوم. أكان عليه أن يقتص منه فورًا، أن يوسعه ضربًا حتى يتعلم درسًا لن ينساه؟ أم يفضحه بين الجميع ليكون عبرة لمن تسوّل له نفسه خيانة الثقة؟ لكنه في النهاية، لم يحرك ساكنًا، سوى أن نظر إليه طويلًا، نظرة حملت في

طياتها كل ما يعجز اللسان عن قوله، نظرة كانت أشد وقعًا من ألف عقاب. ثم استدار، عائدًا بخطوات مثقلة، تتردد في ذهنه فكرة مريرة :كيف يمكن للثقة أن تُمنح لغير أهلها؟ وكيف يكون أقرب الأصدقاء أشد خيانة من الغرباء؟! ترك خلفه رجلاً ارتجفت أوصاله من الخوف، وامرأة جريحة شعرت بأن الأمان الذي كانت تؤمن به قد تصدع، وبأن العالم الذي وثقت به قد كشف لها عن وجهه الآخر القاسي.

## 4. الانتقال الى العاصمة

## زيارة الأخ

حين انتقلوا إلى المدينة، بدت الحياة هناك كما لو أنها تفيض بالحركة وتحتشد بالوجوه واللقاءات، كأنها مسرح لا يهدأ، تتوالى عليه المشاهد دون توقف.
في لحظة تفاؤل خاطفة، خُيّل إليها أن هذا التغيير قد يكون فرصة لإعادة صياغة حياتهما، ربما يُعيد الدفء المفقود إلى علاقتهما، ويبدد ذلك الصمت الثقيل الذي تراكم بينهما كجدار عازل. لكنها سرعان ما أدركت أن شيئًا لم يتغير. ظل كما هو، ينغلق على نفسه أكثر فأكثر، كأنه ينسحب إلى

عالمه الخاص، يحتمي بأسوار غير مرئية، كأنما يفرّ من شيء لا يستطيع مواجهته.
ثم جاء اليوم الذي رأته فيه ينبض بالحياة كما لم يفعل منذ زمن. كان النور يشع من عينيه ببريق غريب، وكأن الكدر تنحى جانبًا ليمنحه لحظة صفاء نادرة.
عرفت، من تلك الحيوية التي تسربت إلى حركاته، ومن البشاشة التي استعادت مكانها على ملامحه المتعبة، أن أخيه الكبير سيزوره، ذاك الذي فرّقت بينهما عقود طويلة من الغياب، وترك في روحه أخاديد من الوحشة قد يمحوها هذا اللقاء.

كان يتحرك في المكان كمن يحاول احتضان الفرحة بكلتا يديه، يتفقد التفاصيل، يرتب، يخطط، ويحرص على أن يكون كل شيء على أتمّ وجه، كأن قلبه يريد أن يعوض أخاه عن كل سنوات الفقد دفعة واحدة. لم يكن يفكر في راحته، بل في راحة زائره، ذاك الغائب الذي بقيت صورته في ذاكرته، مزيجًا من حنين موجع وماضٍ لم يفقد بريقه في روحه.
أما هي، فكانت فرحتها تضاهي فرحته، بل ربما تجاوزته بمراحل، وكأنها تستعدّ لاستقبال أخيها وليس أخاه. كانت تتخيله واقفًا على العتبة، وكيف سترتسم السعادة على ملامحه عند اللقاء؟ كيف سيُطلّ الدمع من عينيه؟ وكيف

سيفترش الفرح وجوههم بعد هذا الفراق الطويل؟ وماذا عن تلك اللحظة التي ستتلاشى فيها المسافات أخيرًا، حيث لا تبقى للحروف المكتوبة ضرورة، ولا للحكايات الناقصة قيمة، لأن العناق وحده سيكون كافيًا ليقول كل ما عجزت عنه السنوات؟

إنها الغربة، تلك التي تجعل من اللقاء العابر عيدًا، ومن الزيارة المنتظرة عمرًا بأكمله، تُعمّق الاشتياق حتى يصبح وجعًا لذيذًا، وتمتحن القلوب لتجعلها أكثر صلابة، وأكثر توقًا للفرح حين يأتي. واليوم، كان الفرح قريبًا، يطرق الأبواب بكل قوة بعد طول غياب.
وأتى أخوه المقيم أصلا في اليمن، ذلك الذي غاب عنه عقودًا، مذ رحل إلى أوروبا بحثًا عن العلم، وعاد طبيبًا يحمل في روحه خبرات الغربة ورائحة المنافي.

شعرت ببرودة اللقاء منذ اللحظة الأولى، التي اطل بها عليهم، ولم يكن بحاجة إلى إخفائها، بل أطلقها دون مواربة، كطعنة نافذة حين قال، بصوت لم يحاول خفضه:
**ـ" ليست جميلة كما وصفتها لي في رسائلك، ولا أجد فيها أي جاذبية"**.
كان وقع الكلمات أشدّ من أن يُحتمل. ابتلعت دهشتها كما

يبتلع المرء السمّ، دون أن تجد ردًا يليق بفتور اللقاء ومرارة الكلمات.

كانت تدرك أن عائلته لم تتقبلها يومًا، بل وربما اعتبروها السبب في اغتراب ابنهم، والمسؤولة عن وحدتهم التي أورثتهم ألم الفقد بمغادرته العراق، دون ان يدققوا مليًا في السبب الفعلي الذي اضطره للمغادرة، لقد تناسوا ـ أو أرادوا أن ينسوا ـ أنه لم يكن ليستطيع البقاء أصلاً، لأنه كان مهددًا بالاعتقال في اي لحظة، كان مطاردًا ومحكومًا بالإعدام، ولو لم يهرب، لما كان قد بقيَ حيًا

حتى الطفل، ابن أخيه الوحيد، لم ينل شرف الاحتضان، لم يمنحه حتى لمسة حانية أو لعبة صغيرة يجاملهم بها. كان يعامله وكأنه غير موجود، كأنه لا يستحق الاعتراف به، بل حين أشاروا إليه بأنه يشبه والده، انتفض رافضًا، مصرًا:" **أنه يشبه أمه، لا أبيه**". لم يكن مجرد رفض للمقارنة، بل كان إنكارًا مستترًا، كأن الاعتراف بالشبه يعني الاعتراف بها، وهي التي لم يكن يراها تستحق أن تكون جزءًا من حياة أخيه.

كم هو موجعٌ أن تحب شخصًا حبًا عظيمًا، ثم تدرك أن محيطه كله يقف لك بالمرصاد، كأنك دخيل على فرحتهم، غريب عن انتماءاتهم. لكنها لم تنبس ببنت شفة. كانت تعلم أن بعض الصراعات لا تُحسم بالكلمات، بل بالصبر، بالصمت الموجع، وبالوقت الذي يكشف الحقائق مهما

تأخرت.

بقيت متماسكة، رغم الألم الذي كان يتسلل إليها كسكين باردة، تشق الروح ببطء، دون أن تُحدث ضجيجًا. لم يكن اللقاء كما تخيلته، كما لم يكن فيه العناق الذي يشفي وجع الغياب، بل جدارًا آخرًا يُضاف إلى جدران المسافات، ليجعل الفجوة أكثر اتساعًا، والوجع أكثر عمقًا.

## 5. معسكر التدريب

كان جنوب اليمن في تلك الحقبة نابضًا بالحياة، يعجّ بعقول لامعة ورفاق متّقدين فكرًا ونضالًا، جاءوا من العراق ومن اوروبا ودول أخرى بعد انهاء دراستهم او عقود عملهم، يحملون معهم مشاعل الأدب والفن والعلوم، ينسجون بخيوط الإبداع صفحة مشرقة من التبادل الثقافي والمعرفي. لم يكونوا مجرد زائرين عابرين، بل كانوا شركاء في الحلم، يغترفون من معين التجربة اليمنية، ويهبونها من عزمهم وجهدهم بسخاءٍ لا يعرف الحدود.

فوق الجدران العالية، نقشت الجداريات الخالدة، تنطق بالألوان والصور عن معاني التضامن والحرية. وعلى خشبات المسارح، تعالت أصوات الفنانين والشعراء، تحلق قصائدهم في فضاءات عدن، تلهب القلوب، وتبعث الأمل في أرواح المناضلين. لم تكن حناجرهم إلا انعكاسًا صادقًا لهذا التآخي، فكانت تتغنى بألحان الثورة والنضال.

الجمهور اليمني يحفظ الأغاني عند الانطلاق من أول وهلة، وكأنها وُلدت من رحم هذه الأرض. ومن بين تلك الأغنيات التي لامست وجدان الناس وأصبحت نشيدًا يتردد في الشوارع والساحات، كانت أغنية "يا حبيبة يا عدن"، التي ردّدها حتى الأطفال ببراءتهم، وكأنهم يدركون في أعماقهم معنى حب الوطن.

لكن هذا التضامن لم يكن مجرّد احتفاء بالكلمة واللحن، بل كان موقفًا يتجذّر في الميدان. حين استجابت الحكومة اليمنية لنداء الحزب الشيوعي، وفتحت أبواب المعسكرات، حيث اجتمع الرفاق، لا ليحملوا القلم والريشة فحسب، بل وليحملوا السلاح أيضًا. هناك، في ساحات التدريب، تلاشت الفوارق بين المثقف والمقاتل، فالجميع كانوا جنودًا في معركة واحدة، معركة الحرية.

وبعد أن اشتد عودهم وتمكنوا من السلاح، مضوا نحو كردستان، حيث كانت قوات الانصار تنتظرهم، فصائلًا مناضلةً تحمل على عاتقها مسؤولية التصدي للطاغية

المستبد، في دروب محفوفة بالتضحيات، لكنهم ظلوا ممتلئين بالأمل في غدٍ لا مكان فيه للظلم والاستبداد.
استجاب معظم الرفيقات والرفاق لنداء الحزب بحماسة لا تعرف التردد والتحقوا بمعسكرات التدريب، حاملين على عاتقهم مسؤولية الكفاح ضد الظلم والطغيان الدكتاتوري في العراق، حتى أولئك الذين أنهكتهم السنون أو قهرتهم العلل لم يتراجعوا، بل أصرّوا بإرادة لا تلين على حمل السلاح، وكأن شوقهم للحرية منحهم قوة تتحدى الجسد وقيوده.
كان التدريب مكثفًا وقاسيًا، حيث تم اختزال مراحل طويلة في شهر ونصف الشهر فقط. التدريبات كانت تستمر ليلًا ونهارًا بلا هوادة، تحت لهيب شمس عدن الحارقة. كانت الرفيقات يختبرن صلابة عزيمتهن، فبعضهن كادت قسوته تستنزف طاقتهن، لكنهن مضين رغم الإرهاق، رغم الجراح الخفية التي لا تُرى.
في زحمة التدريب وضيق الوقت، لم تغب لمحات من حياة الغبطة والمسرة. كانت النشاطات الفنية والاجتماعية تظهر بين الحين والآخر كفسحة ضوء وسط عتمة التحدي.
كانت وزوجها من بين أولئك الذين التحقوا بالمعسكر، لكنهما اضطرا إلى ترتيب أمر تدريبهما مناوبة، مراعاةً لطفلهما الصغير. التحق هو أولًا، رغم وطأة المرض الذي يثقل جسده، لكنها رأت في ذلك فرصة، ربما للتعافي، وربما للغرق أكثر في عالم النضال حيث الألم يصبح جزءًا

من رحلة المعاناة للانعتاق والتحرر مما فيه، وحيث الأمل الذي لا يموت مهما اشتد عليه الخناق.

كانت تجربة التدريب العسكري بالنسبة لها حدثًا استثنائيًا، لا يشبه أي تجربة سابقة مرت بها. فقد صقلت روحها، وأرهفت قدرتها على التحمل والصبر، وزرعت في داخلها إرادة لا تلين، وقوة مجابهة لا تعرف التراجع. كانت تدرك أن هذه التجربة لم تكن مجرد محطة عابرة،
بل كانت اختبارًا للصلابة، وامتحانًا لقدرتها على التصدي للصعاب، وصراعًا بين الإيمان بالمبدأ والخذلان الذي يتسلل عبر النفوس الهشة.
في المعسكر، كانوا يمنحونهم إجازات قصيرة بين الحين والآخر لزيارة عوائلهم، لكنها لم تكن إجازات خالية من المنغصات. فقد كان هناك من يتقن فن التملق، وتسريب المعلومات ممن يكتبون التقارير، يقتنصون الكلمات، ويصيغون الوشايات. يتسللون إلى آذان المسؤولين طمعًا في مكاسبهم الشخصية، دون أن يعبئوا بآثار وشاياتهم على الآخرين، وقد لاحظت انها حين تصل إلى منزلها، تجد نفسها في مواجهة سيول من الأخبار عمّا جرى في المعسكر، صغيرها وكبيرها، حتى لتخال أنها لم تفارقه لحظة.

لكن شوقها الأكبر لم يكن إلا لذاك الصغير الذي تركته بعهدة والده. وحين أتيحت لها الفرصة أخيرًا لرؤيته، احتضنته بقلب يرتجف، وكأنها تعتذر عن غيابها القسري. ورأته، رأته وهو يتلبك بخطواته.. خطواته، التي لم تكن للأسف الشاهد على لحظة انطلاقتها الأولى، والتي كانت بعيدة عن عينيها. احست بالغصة، كأنما انتزع جزءًا من قلبها وترك معلقًا هناك، في الفراغ الذي خلّفه غيابها. بكت بحرقة، ليس فقط لأنها فوّتت ذلك المشهد الأول الطاهر، بل لأنها شعرت بعمق الغياب في تفاصيل صغيرة كان ينبغي عليها أن تكون حاضرة فيها.

أما علاقتهما، فقد كانت تتهاوى يومًا بعد آخر. لم يكن هناك تغير ايجابي مرتقب، بل كان الجفاء يتمدد كظل بارد بينهما، يتسع بلا هوادة.

## 6. الوداع الأخير

## كانون الثاني/ 1981

عندما صدر قرار التوجه إلى كردستان، كان ذلك بمثابة مفترق طريق حاسم. أرادت أن تكون إلى جانبه، أن تمضي معه في درب النضال الذي آمنا به، لكنها مُنعت بسبب مسؤوليتها عن طفلهما. لم يعترض، لم يلتفت إلى هذا الحرمان الذي فرض عليها، بل مضى بعزيمة صلبة، كأنه كان مستعدًا للمضي قدمًا دون أن يترك شيئًا خلفه ليندم عليه.

كان يخفي آلامه، كما يخفي الجراح التي أثخنت روحه، لا يريد أن يظهر ضعفه حتى أمامها، وهي أقرب الناس إليه. مضى، يحمل في صدره قناعة لا تتزعزع، وإصرارًا لا يعرف الوهن، تاركًا خلفه قلبًا مثقلًا بالفقد، وأمًا لم تزل تتلمس آثار خطوات طفلها الأولى، محاولة أن تعوض لحظة سُرقت منها، كما سُرقت منها أشياء كثيرة أخرى.

كانت البيوت تضجّ بأنفاس الوداع، موائد الطعام الأخيرة تُمَدّ بقلوبٍ مرتجفة، تَعِدُ المسافرين بالأمل وتُخفي في زواياها خوف الفقدان. عوائل الرفاق اجتمعت لتودّع أعزاءها، رجالًا قرروا أن يهبوا أرواحهم لقضيةٍ سامية. كان كل قلبٍ معلّقًا بين مشاعر الحزن والخوف، وبين الاعتزاز والفخر. أما الأطفال، فقد التصقوا بآبائهم كما لو أن عناقهم الأخير قد يمدّ الأيام ببعض الحنان المؤجل، وكأنهم يريدون أن يختزنوا رائحتهم، أنفاسهم، دفئهم، أصواتهم، قبل أن يبتلعهم الغياب.

وبينما كانت كل عائلة تنفرد بوداعها الأخير، تقتنص لحظاتها الثمينة التي ستُحفر في الذاكرة إلى الأبد، كانت هي تقف هناك، على هامش اللحظة، مُثقلة بروحٍ لم تجد نصيبها من هذا الطقس الإنساني العميق. لم يكن لها وداع، لم تكن لها حتى نظرة أخيرة تُشبع ظمأ عينيها إلى وجهه.

لم تحظَ حتى ولو بكلمة تليق بوداع الغرباء، لم يلتفت، لم يُعطها حتى تلك اللمحة العابرة التي تمنحها وهْمَ البقاء في ذاكرته.

ظلّت واقفة هناك، تتساءل بين الدموع المنهمرة: هل كان ذلك مقصودًا؟ هل كان يقول لها، بصمته القاتل، إنكِ لا تستحقين حتى كلمة وداع؟

بخطواتٍ متثاقلة، حملت دلو الماء، وسكبته خلفه، كما كانت تفعل والدتها حين كان والدها يسافر، اعتقادًا منها بأن الماء المسكوب يُعيد المغادرين سالمين. لكن أيّ ماءٍ هذا الذي يستطيع أن يعيد من لم يكن لها يومًا؟ أيّ ماءٍ هذا الذي قد يطفئ نار الأسئلة المتقدة في قلبها؟

عادت إلى دارها، وأغلقت باب غرفتها، ثم انهارت في بكاءٍ عاصف، شهقاتها كانت أقرب للصراخ، كأنها تحاول اقتلاع حزنٍ تجذّر في أعماقها. أغمضت عينيها، لتستعيد في ذهنها صورته الأخيرة، خطواته المتباطئة، ذلك التردد الذي لاح على وجهه، تلك الحيرة الموجعة التي تركها خلفه كسكينٍ مغروس في خاصرتها.

رحل وهو يحمل ألف سؤال، لكنه ترك لها أضعافها، تركها غارقةً في متاهة من الشكوك والجروح التي لن تندمل، مهما حال بينها وبين الزمن سدودٌ وجبال.

لماذا؟ لماذا كل هذا الجفاء؟ لماذا تركها تحترق بأسئلتها دون أن يمنحها حتى حقّ المعرفة؟ ألم يكن الحب يستحق

كلمة أخيرة، تفسيرًا، حتى لو كان فراقًا قاسيًا؟ أكان يكرهها بقدر ما أحبته، فلماذا لم يقلها بصريح العبارة؟ لماذا لم يمنحها وضوحًا كان سيخفف عنها هذا العذاب القاتل؟ كم تمنت أن يكون بينهما حديثٌ أخير، حديثٌ يضع النقاط على الحروف، يحررهما من هذا الأسر، يترك كلًّا منهما يُلملم روحه المبعثرة، ويمضي بطريقه. حتى لو كان الحديث يفضي إلى الافتراق، حتى لو كان الانفصال هو النهاية، فقد كان ذلك أهون من هذا الفراغ الذي تركه في قلبها، من هذا الوجع الذي ينهشها بلا رحمة، من هذا العشق المصلوب على جدران الصمت، بلا إجابة، بلا مخرج، بلا نهاية واضحة سوى الألم.

## 7. مفاصل ما بعد السفر

حين خلت إلى وحدتها، لم تجد ملاذًا سوى الكتابة، فراحت تدبّج إليه كل يوم رسالة، تحثّ الخطى في دروب الحنين، علّها تسترجع شيئًا من دفء المحبة وأُلفة الأيام التي جمعتهما. كانت تسلم رسائلها للمنظمة، على أمل أن يحمل البريد نبض قلبها إليه، وما توانت يومًا عن الكتابة، حتى بدأت تتلقى ردوده، وفيها لمعت من جديد لغة الألفة، كأن الشوق قد بعث فيها الحياة من جديد.

كانت كلماته تبعث الطمأنينة في روحها، فتبادله الحديث بلطفٍ مفعم بالحنان، تذكّره بالعناية بصحته، لأنها تخشى عليه، وتشجّعه على المضي بثبات في خدمة القضية التي آمنا بها. تخبره عن صغيرهما، "مسار"، الذي لا يكفّ عن السؤال عنه، وكيف أن غيابه يثقل قلبه الصغير.

في آخر رسالة، صارحته بما يعتمل في قلبها من قلق، حين شجعتها إحدى الرفيقات على ختان "مسار"، خطوة جريئة أربكتها، وأحاطت قلبها بالخوف، وتمنت لو أنه كان إلى جانبها في تلك اللحظة المفصلية. ورغم التردد، قررت أن تمضي، فذهبت في صباح اليوم التالي إلى المستشفى، يرافقها دعم رفيقتها التي كانت سندًا لها.

تمت العملية بسلام، وخرج الصغير معافى، ولولا وقوف الرفيقة بجوارها، لانهدّت قواها تحت وطأة القلق. حين عادت إلى البيت، علت الزغاريد من حناجر الرفيقات، احتفالًا بسلامة الطفل. في اليوم التالي، جاءت ممرضة، صديقة لإحدى الرفيقات، وتطوّعت لمتابعة حالة الصغير حتى شفاؤه. شكرتها بحرارة، ولم تجد ما تعبر به عن امتنانها سوى أن تهديها أثمن ما تملك: فستانها الأجمل.

تنامت الألفة بين الرفيقات كما لو أن قلوبهن الجريحة قد وجدت في تقاربهن عزاءً دافئًا، ينساب كنبع رقراق يغسل

آلام الفراق ويضمد ندوب الروح. كانت أخوّتهن تمتزج بصدق المشاركة الوجدانية، فيتحلقن حول مشاعرهن كعائلة واحدة نسجتها المآسي والخسارات لتصبح قوة نابضة بالحياة. تبادلن الأدوار في الذهاب إلى العمل، وتناوبن على رعاية الأطفال الذين لم يبلغوا سن الدراسة بعد، يحرصن على ألا يشعر صغير بالنقص أو الفقدان، وكأنهن يؤدين رسالة سامية تنبض بروح الأمومة الجامعة، ورسالة المقاومة الصامتة.

كان المجمع السكني الذي يأوي العراقيين أشبه بجزيرة معزولة عن المدينة، يبتعد عنها قليلاً لكن شعور العزلة يمتد عميقاً كجرح لا يندمل. أمام المجمع ساحة فسيحة تتراءى على الجانب الآخر منها أسوار مدرسة ثانوية شاهقة، كانت هي وبعض الرفيقات يعملن فيها مدرسات، يعلّمن العلم وسط ظلال من الغربة والأمل.
كانت تلك الساحة الواسعة ملاذًا مترامي الأطراف، يحتضن قلوبًا أثقلتها الأيام وأرواحًا لم تبرح مرابع الأمل. ثمة نبض خفيّ فيها، حياةٌ تتجدد رغم كل ما يحيط بها من ألمٍ ووحشة. كان الأطفال يركضون فيها بعفوية تفيض نقاءً، يتسابقون نحو الفرح الذي لا يُدركونه تمامًا، وأحلامهم الغضة ترفرف كأسراب طيور تائهة تبحث عن سماء تحتضن حريتها دون خوف.

أما الرفيقات، فكنّ يلتئمن حول أكواب الشاي المتناثرة، كأنما نسجت بينهن تلك الجلسات خيوطًا من ألفة تتجاوز الكلمات. أحاديثهن تلتقي عند مفترق الوجع والأمل، تتشظى بين مرارة الحاضر الذي يثقل كاهلهن وأمنيات الغد التي ما زالت تنبض في أعماقهن. ساعات السمر كانت تمتد كأنها محاولة يائسة لسرقة الزمن من قبضة المجهول، وكان صوت ضحكاتهن المتناثرة يعلو أحيانًا كتمردٍ على قسوة الواقع.

وحين يذوب النهار في وهج الأصيل، ويتسلل النور الذهبي إلى القلوب المنهكة، يتشاركن ما يصل إليهن من أخبار عبر رسائل مشحونة بالقلق والشوق، أو صورٍ بعثها الأزواج من بعيد كأنها أمانات يستودعونها قلوبهن. أحيانًا تكون الرسائل مجرد كلمات مكتوبة بعجلة، وأحيانًا أخرى تأتي محمولة على ألسنة رفاق التنظيم العائدين من ميادين الكفاح. وجوههم تغمرها نظرات متناقضة، مزيجٌ من رجاء يتمسك بالحياة وخوف يسكن ما وراء المدى.

هكذا كانت الساحة؛ مساحةً تجمع بين أطياف الفرح الحائر وملامح الوجع المتعاقب، لكنها رغم كل شيء، بقيت شاهدة على حياة تتشبث بالبقاء، وعلى أرواح أبت أن تنكسر تحت وطأة الألم. اثقلها وأقلقها انقطاع رسائله الا انها لم تستسلم لليأس.

تلك الأيام المثقلة بالغياب والقلق لم تتركها والاخريات أسيرات للفراغ أو الاستسلام. كنّ يبحثن دوماً عن سبل تجعل أيامهن ذات جدوى، فيتحلقن معاً في إنتاج مشغولات يدوية وأعمال حرفية، يتقنّ صنعها بحب وصبر. ينسجن او يخطن الملابس الصغيرة بأيديهن، ويعدَّين الحلويات التي يبعنها في معارض يقمنها بأنفسهن لحساب الحزب. لم يكن الهدف مجرد الربح المادي، بل كان العمل رمزاً للصمود، دعماً للحركة الأنصارية في كردستان، ومساهمةً في معركة الوجود بمعناه الأسمى، حيث تتجاوز الإرادة حدود الحصار وتقتلع جذور العزلة.

وهكذا كانت أيامهن تمضي، متأرجحة بين شقاء الفراق وسكينة التكاتف، وبين قسوة الغياب وحنين اللقاء. كأنهن يصنعن من محنتهن درسًا خالدًا في الصمود والإرادة، يقاومن بأسلوبهن الخاص، ويزرعن في أروقة الوحدة أزهاراً من الأمل والتضحية.

## 8. الاستشهاد

## نيسان/ 1981

كانت تنحني خلف ماكينة الخياطة، غارقة في التفاصيل الصغيرة، تخيط آخر قطعة من دوزينة فساتين الأطفال بأصابعٍ تداعب القماش برقة وحب، وكأنها تبث في كل غرزة حكاية أمل جديد. كانت تسابق الزمن لتنجز ما تبقى من العمل قبل الغد، حيث يُفترض أن تُعرض الفساتين للبيع دعماً لحركة الأنصار. كان في عينيها بريق رضا وفرح، فهي تشعر أخيرًا بأن لها دورًا في المعركة، ولو كان صغيرًا.

لكن شيئًا ما في الأجواء تغيّر. أخذت الأصوات من حولها تخفت، وتحولت الهمسات إلى صمت مريب. رفعت رأسها فوجدت الرفاق كلهم قد تجمعوا حولها في الصالة، نظراتهم مثقلة بألمٍ غامض، ووجوههم مرهقة بلون الموت. في البداية، لم تدرك معنى هذه الكآبة المخيمة، وظنّت أنهم قد أتوا ليشاهدوا ما صنعت يداها، ولتُريهم، بدورها، ما أنجزته بفخر وسعادة عفوية. غير أنها لم تسمع كلمات الإطراء التي اعتادت سماعها، بل التقت بنظرات عيونهم الدامعة وأرواحهم المكسورة.

كانت بينهم، كغريبة تبحث عن تفسير لما تراه. ولم تكن تعلم أن حياتها على وشك أن تتغير إلى الأبد. كان مسؤول التنظيم يقف بينهم، عيناه الحمراوان المبللتان لا تخفيان حجم المصيبة التي يحملها. حاول أن يتحدث، أن يصوغ كلماته بشكل لا يقتل الأمل في قلبها، لكنه أخفق. فتفجر الخبر من شفتيه كقذيفة حارقة تخترق صدرها دون رحمة:

**"لقد استشهد أبو مسار"...**

كان وقع الخبر على روحها أشبه بزلزال عنيف اقتلع جذورها من أعماقها. للحظة لم تعد تشعر بشيء، لا أصوات، لا وجوه، لا معنى لأي شيء. تحجرت الدموع في عينيها وتصلبت أطرافها، وكأنها تمثالٌ حجري تحدى الزمن فانهار فجأة. تهاوت على البلاط هامدة كجذع نخلةٍ اقتُلِعَ من جذوره، مشدوهةً لا تعي ما حولها.

غابت عن الوعي لعدة أيام، غارقة في ظلماتٍ بلا قرار، حيث لا صوت سوى صدًى بعيد لكلمات رسالته الأخيرة، ولا شعور سوى ثقل الحزن الذي ينهش قلبها بلا هوادة. وعندما استعادت وعيها، أدركت أن ما حدث لم يكن حلمًا بل حقيقةً مريرة، تؤكدها الدموع في عيون الآخرين وأوجاعهم التي كانت تحاكي أوجاعها.

مسحت دموعها المرتجفة، وتلفتت حولها تبحث عن شيء يمسكها من الانهيار. "أين صغيري؟" سألت بصوت متهدج يكاد لا يُسمع. أُحضِرَ إليها الطفل، بين ذراعيها وضعوه، وهما الذراعان اللتان فقدتا القوة والقدرة على العناق. ضمته إلى صدرها المرتجف وكأنها تحاول إعادته إلى رحمها لتحميه من العالم الذي صار الآن أكثر قسوة.

طلبت من الآخرين أن يتركوها وحدها مع صغيرها، وأن يغلقوا الباب خلفهم. وما إن فعلوا حتى انفجرت بالبكاء، بكاءٍ مرّ وعميق، كأنها تسكب كل دموعها دفعةً واحدة، إلى الأبد. لم تكن تعرف، أتبكي على نفسها التي تهاوت من عليائها؟ أم على طفلها الذي أصبح يتيمًا قبل الأوان؟ أم على حلمها الذي قُتل في لحظةٍ لم تكن مستعدة لمواجهتها؟

كان الحزن ينهشها بلا رحمة، لكن في أعماقها كانت تعلم أن عليها أن تنهض، أن تتشبث بالحياة من أجل طفلها الذي لا يعرف معنى الفقد بعد. من أجل قضيةٍ آمنت بها رغم كل

شيء. لكن الألم كان أثقل من أن يُحتمَل، وكانت الدموع جسرها الوحيد بين الماضي والمستقبل.

## 9. نافذة ضوء في حلكة عتمتها

كان الحزن ينهشها بلا رحمة، لكن في أعماقها كانت تعلم أن عليها أن تنهض، أن تتشبث بالحياة من أجل طفلها الذي لا يعرف معنى الفقد بعد. من أجل قضيةٍ آمنت بها رغم كل شيء. لكن الألم كان أثقل من أن يُحتمَل، وكانت الدموع جسرها الوحيد بين الماضي والمستقبل.

غمرها السواد حتى بات الحزن رداءً لا ينفك عن روحها، وتحوّلت الدموع إلى سلوى باردة تتوسل منها عزاءً في ليل الفجيعة الطويل. كانت أيامها تمضي مثقلة بصمت موجع، حيث لا صوت سوى بكاءها، ولا حضن يحتويه سوى حضنها المرتجف.

وصل أخوه إلى حيث تقيم، جاء لتعزيتها ربما بدافع الواجب العائلي أو الالتزام الأخلاقي، لكن حضوره لم يخفف من وطأة معاناتها، بل زاد من يقينها بوحدتها المطلقة في مواجهة مصابها. كان العالم من حولها كئيبًا، أشبه بصحراء قاحلة لا حياة فيها، والذكريات تلسعها كأسواط من نار.
وسط هذا اليأس الذي أطبق عليها كالكابوس، ابلغوها بخبر أعاد إليها شيئًا من الضوء الذي كادت أن تفقده للأبد. كان حلمها بالدراسة قد طُوي او نُسي كما تُنسى الأحلام الصغيرة وسط صراعات البقاء. لكنها تفاجأت حين أخبرها مسؤول التنظيم بأن العمل جارٍ لتحقيق حلمها بالسفر والدراسة، بصحبة صغيرها، وكأنهم بذلك يمنحونها طوق نجاة من غياهب الألم.
لم يسألوها عن رغبتها في التخصص، أو عن نوع الدراسة التي تتوق إليها. كل شيء جاء كما اعتادوا أن يقرروه للأخرين، وهذه المرة ايضا لم تعترض. بل بدا لها الأمر كنافذة ضوء صغيرة تُفتح على حلكة عتمتها. ربما لم تكن تلك النافذة كافية لتبدد كل ذلك السواد الذي يغمرها، لكنها كانت كفيلة بإعطائها سببًا للاستمرار.

تهيأت للسفر بروحٍ عقدت العزم على النهوض من ركام الألم، عازمة على إعادة تشييد ذاتها المنهكة، لبنةً لبنة، وقلبًا لقلب. كانت عيناها المتعبتان تجولان في الأفق البعيد،

تبحثان عن سبيلٍ لا تقوده مرارة الفقد وحدها، بل ينفتح على أفقٍ جديد، فيه بصيص رجاء، ونقطة بدء لحياةٍ لم تعد تسير على وقع الانكسار وحده. في أعماقها، كان الإحساس حادًا وواضحًا: هذه الفرصة، رغم كل ما فيها من غموض، هي خيط النجاة الأخير، وطوق الإنقاذ الذي سيُخرجها من غياهب الانهيار، ويمنحها ـ ولابنها ـ فسحة أمل تستحقها أرواحٌ أتعبها النزف الطويل.

أرادتها بدايةً لا تشبه ما مضى، فكان قرارها جريئًا: أن تخلّف وراءها كل ما يمت إلى حياتها القديمة بصلة، أن تودّع كل ماله علاقة بالمنزل، وملابسها، وزينتها، وكل ما شكّل يومًا تفاصيل اعتيادها. ارادت ان تبدأ من فراغ نقيّ، لا يحمل رائحة ما مضى، فلم تبقِ معها سوى آلة التصوير ـ تلك العزيزة على قلبه ـ التي لازمته قبل ان يعرفها، والتي فكرت ان تهديها لابنه يوما ما، ان كتب لذلك اليوم ان يأتي. لم يكن الأمر محض تخففٍ من متاعٍ مادي، بل كان تطهرًا من أحمال الذكرى، وتعبيرًا صادقًا عن امتنانٍ راسخ للنساء اللواتي ساندنها في محنتها؛ وزعت مقتنياتها عليهن، كما لو أنها توزّع شكرًا لا تسعه الكلمات. لم تحتفظ سوى بما يكفي لحياة جديدة: بعض الضروريات، وحنينٌ مشوب بالوجع لطفلٍ سيكون رفيق دربها المقبل.

تنفّست ببطءٍ كمن يلتقط أنفاسه بعد غرقٍ طويل، شعرت وكأن الهواء قد تنقّى من ثقل الأحزان، كأن كاهلها تخلّص ولو للحظة من ذلك العبء اللامرئي الذي ظلّ يرهق الروح قبل الجسد. كانت تلك الزفرة أشبه بتحرّرٍ داخلي، صامت لكنه مهيب، وفيها بدا العالم أقل قسوة، وأكثر احتمالًا، كأن الحياة بعد طول غياب أرسلت إليها همسة رجاء، ووعدًا خفيًا بأن القادم قد يكون ألين من الماضي.

استُكمِلت أوراق السفر، وحُدّد الموعد، وكانت الوجهة: بلغاريا. وكأن للأقدار سيناريو خفيًّا يعيد تدوير الأمكنة في حياة البشر، لتزورها: مرةً وهي تنزف، ومرةً... ربما لتتعافى. لم يكن قرارًا عابرًا، بل أشبه بمصالحة صامتة مع ماضٍ لا يُنسى، وبداية حوار جديد مع الذات.

غمرها الحنين مستذكرة اللحظات التي ودعت فيها والديها، سرحت في طيفهما وساءلت نفسها: إن كان خبر استشهاد زوجها قد بلغهم. في تلك اللحظة الفارقة، دمعت عينها وودت لو تضع رأسها في حضن أمها، أن تغمض عينيها وتستسلم لذلك الأمان القديم، كما لو أنه آخر ما تبقّى لها من العالم.

القت بنفسها على السرير، أغمضت عينيها، وسرعان ما تدفقت الذكريات كأنها خيول سباق أصيلة، مفعمة

بالعنفوان، لا يلجمها زمام. امتطت صهوتها، وراحت تركض بها عبر مضامير الذاكرة، من طفولة والديها حتى بواكير نشأتها وصباها، في جردة تمتد حتى اللحظة الأخيرة التي ودّعت فيها بيتهم.

كم كان مُريحًا أن تترك نفسها بين أذرع الذكرى، وكأنها تستمد منها ما يعينها على استقبال الغد القادم بكل ما فيه من غموض ووعد.

# الفصل الرابع

# التداعيات

## 1. طفولة الابوين المسلوبة

والداها أبناء عمومة نسجت بينهما أواصر اليُتم والمعاناة، فالتقيا تحت سقف بيتٍ واحد، هو بيت جدها، الذي اقترن بأرملة أخيه بعد وفاته، فكانت الزوجة الثانية له. أنجبت له أربعة أطفال، أحدهم والدتها، ثم ما لبثت أن أسلمت الروح عقب ولادتها لطفلتها الأخيرة، تاركة خلفها صغارًا وأحزانًا لا تهدأ.

وفي هذا البيت، تكفّل الجد أيضًا برعاية أبناء أخيه الآخر، وكان والدها أحدهم، بعد أن فقدوا الوالدين، فضمّهم جميعًا تحت جناح واحد، يجمعهم سقف واحد لطالما ظلوا تحته مهمشين.

أبناء الزوجة الأولى، تلك التي ظلّت سيدة الدار بلا منازع، نالوا من الرعاية ما يُنعش القلب، ومن العاطفة ما يُشبِع الروح، ومن الحنان ما يُطمئن الطفولة. أما الآخرون، أولئك الذين يسكنون في زوايا الصمت، ويتجرّعون مرارة الغربة داخل بيت يُفترض أنه مأواهم، فقد كانت حصّتهم من الحياة أشبه بحصاد الجفاف؛ قسوة تَنهش، وحرمان يُميت ببطء، وفتاتٌ بالكاد يضمن البقاء.

وما زاد من عمق الجرح أن الجد، رغم ما امتلكه من مهارة يُشهد لها في صناعة الأحذية، حتى غدت اعماله مطلوبة من النجف حتى أقاصي العراق، لم يُحسن أن يصنع من قلبه مأوى، ولا من رحمته عدلًا؛ فظلّ عطاؤه مجزوءًا، مثقوب الرحمة، لا يصل إلا لأولئك الذين تسري في عروقهم دماء زوجته الأولى.

من ذكريات والدتها التي حفرت وجعها في ذاكرة الطفولة، أن حضور والدها في البيت كان إعلاناً لصمت ثقيل، صمتٍ خانق كأن الزمن يتوقف خشية أن تُرتكب هفوة، ولو همسة عابرة، فيتساقط العقاب كالسياط على الجميع باستثناء أبناء زوجته الاولى. كان الهدوء المطلوب أشبه بجمرٍ تحت الرماد، حتى ليُسمع صوت الإبرة إن سقطت على الأرض، وإلا فالعصا جاهزة، تهوي على الأجساد حتى تتهشم من شدة الضرب.

نظام صارم تحكمه القسوة لا الرحمة، فالأبناء، دون اعتبار لأعمارهم، كانوا يُساقون للعمل في دكان جدها الإسكافي، كأنهم

أدوات لا بشر، يعملون لأجل لقمة بالكاد تسد الرمق. أما البنات، فمصيرهن السجن في جدران البيت، عبودية يومية تحت مسمى الخدمة، لا فسحة لراحة أو لهو.

حتى حين يغسلن الثياب الوحيدة التي تغطي اجسادهن، والتي إن بليت، فلا بديل لها، كنّ يتلفعن بالعباءات لئلا تُبصر الشمس عريهم، إذ لا جديد للأيتام إلا ثوب العيد، ولمرةً واحدة في السنة، كأن الفرح مؤجل إلى إشعار آخر.

كانت والدتها، في خضم هذا الضيق، تجد لنفسها هامشاً من الحيلة، حين تأخذ من أقراص الخبز، المحسوبة من قبل زوجة الاب، أربة صغيرة من كل رغيف، لتصنع رغيفاً سرياً زائداً تخبئه لإخوتها الجياع، يتقاسمونه في الخفاء. كانوا يشربون الماء قبل الطعام ليخدعوا جوعهم، إذ إن ما يُمنح لهم لا يكفي، ولا يشبع. كانت تحب اشقائها حبا يفوق حتى حبها لنفسها.

تلك الذكريات، رغم قسوتها، كانت تُروى بوجع هادئ، كأنها شهادة على ما نجا منه القلب، وعلى صبرٍ تشكّل في رحم العذاب. اما والدها، وهو الفتى الصغير، كحال الصبية الاخرين من الايتام يعمل في محلٍ يملكه عمه، كان يحمل في قلبه توقًا دفينًا للعلم والمعرفة، شغفًا لم تطفئه قسوة الأيام ولا قهر الظروف. كان يستغل أضيق الفرص، وأبسط الذرائع، ليقتنص لحظات من النور وسط عتمة وقساوة الواقع. حين يُسمح له بالخروج لقضاء حاجته

لبضع دقائق، كان يتوجه بخطى متلهفة إلى الحوزة القريبة من مكان العمل، لا رغبة في الراحة بل شوقًا إلى دروس تُعقد في صفوفها؛ دروس عامة وتخصصية، تفتح أبواب الفكر وتُروّي عطش الروح.

لم يكن يملك من الوسائل شيئًا سوى دفترًا صغيرًا وقلمًا، يخفيهما بعناية تحت ملابسه الداخلية، ككنزٍ ثمين لا يجب أن تراه العيون، لاسيما عين عمه الصارمة. كان يسجل فيه ما يلتقطه من الدروس، كلمات تُنقش بالقلم لكن يتردد صداها في أعماق قلبه. وعند عودته إلى البيت، يراجع ملاحظاته خفية، بعيدًا عن أنظار الرقيب، يرددها بصوتٍ خافت، وكأنها صلوات سرية يهمس بها إلى حلمه.

بهذا الإصرار الصامت، والمثابرة المتخفية خلف ستار الخوف، استطاع أن يشق طريقه نحو نورٍ لطالما حلم به. لم تكن الحوزة بالنسبة له مجرد مكانٍ لتلقي العلم، بل كانت ملاذًا، منبرًا للتعلم، وجسرًا يوصله من ضيق الحاجة إلى فسحة الإدراك. وهكذا، في خضم العتمة، بدأ النور يتسلل إلى روحه، نورٌ صنعه بإرادة لا تُقهر، وإيمان بأن العلم وحده هو الطريق إلى النجاة.

# 2. بيت العمة ام حسين (سلام عادل)

البنات، ومن بينهن امها، كن يجدن في زيارة عمتهن "أم حسين:" ـ سلام عادل *ـ متنفساً رحباً من ضيق الحياة وقسوة الأيام. كانت تسكن قربهن، وحين يكُنّ عندها، تحيطهن بعطفها ودفئها كأم رؤوم، حتى انها تمنت على اخيها أكثر من مرة أن تتكفّل بتربية ابنته

---

* ام حسين(مكية) عمة والديها
واسم سلام عادل الرسمي هو حسين احمد الموسوي، سكرتير الحزب الشيوعي العراقي، الذي أعدم إثر الانقلاب البعثي في 8 شباط 1963 في العراق.
عرف باسم شائع هو حسين الرضي: والرضي كنية أطلقها المرحوم والده عليه منذ صباه، تيمنًا بأخلاقه الحميدة، وقد أصبح هذا اللقب عزيزًا على قلبه فرافقة طيلة حياته..
ويقال أيضا: انه هو الذي لقب نفسه بالرضي تيمنا بالشريف الرضي.

الصغيرة "زهرة" مع ابناءها، رغم شظف العيش الذي كانت تعانيه العائلة، لتمنحها ما حرمت منه من حب وحنان بعد وفاة والدتها. لكن الأخ ابى ذلك، لعزة نفسه وزهو رجولته وحفاظًا على مكانته الاجتماعية الرفيعة، رفض أن يُؤخذ عليه أنه تخلّى عن أحد أبنائه، ولو لمصلحة قلب صغير أنهكته الوحدة.

زهرة، تلك الطفلة الندية التي لم تكد تتخطى عتبة العاشرة ربيعًا، كانت تجد في بيت عمتها ام حسين وزوجها، السيد أحمد الموسوي، رجل الدين المتنور الطيّب، عالمًا آخر، رحبًا، يفتح لها أفق الحرية بعيدًا عن قيود العبودية التي ضاق بها بيت أبيها. هناك، كانت تخلع أثقال القهر وتلبس عباءة الطمأنينة، وكأنها تستعيد حقًا سُلب منها.

وكانت سعادتها تكتمل بحضور ابن عمتها، حسين "سلام عادل"، الذي، وإن شغله عبء القيادة في الحزب الشيوعي، ولم تسعفه ظروف المطاردة من عيون السلطة على الدوام، ظلّ لها الأخ الكبير، والروح التوأم، والظل الحاني الذي تستظل به طفولتها المعذبة. والذي كان قد منحها منذ نعومة أظفارها اسمًا "أولي"، دللها به، فاحتضنته بقلبها كما احتضنها بذراعيه، كان يحملها عاليًا في الفضاء، يرميها صوب الحلم ويلتقطها بحنوّ من يخشى على حلمه من السقوط.

# 3. ابن العمة سلام عادل في ذاكرة الوالدين* الأسطورة المتخفية التي تمشي على حافة المستحيل

تحتفظ ذاكرتها، كصندوقٍ سريٍّ قديم، بمجموعة حكايات تسكنها القداسة، كانت تُروى لهم بصوتٍ مشحون بالفخر، يتردد على لسان والديها، عن ابن عمّتهما حسين*، الرجل الذي لم يكن شخصًا عابرًا في الحياة، بل ملحمة نضال تمشي على قدمين ...حسين أحمد الموسوي... المعروف بين رفاقه باسمٍ خلّده التاريخ ـ سلام عادل

---

احتفظت والدتها بالكثير من الصور التي توثق ذكريات والديها مع ابن عمتهما، والتي لم تنجو من التلف بعد دفنها في حديقة المنزل اثر انقلاب شباط 1963.

لم يكن سلام عادل بطلاً بمقاييس العاديين، بل تجسيدًا لحكمة الشجاعة ومكر الذكاء في آن. رجل يتقن فنّ التخفي كما يتقنه الضباب حين يلامس عيون الناظرين، ثم يتوارى كأن لم يكن. كان سيد الأقنعة، يُبدّل ملامحه ببراعة ساحرٍ من وقت لآخر، فلا تعرفه عين، ولا تلتقطه ذاكرة. هو الشخص الذي يظهر في كل مرة بهيئة جديدة: راعٍ بسيط، بدويّ حافٍ، شيخ أحدب، متسول أبكم، أو حتىً أعرج مبتلى... وكان لكل هيئةٍ اسمٌ سريٌّ تتداوله الأسرة خفية، وكان "المعيدي" أكثر الأسماء شيوعًا حين يُبشّرون والدته بقدومه وخاصة حين لا تكون في البيت او عند الجيران.

تروي والدتها، باعتزاز يعتصره الحنين، أن حسين طرق بابهم ذات مساء، في هيئة متسوّل أنهكه الجوع وأذلّه العطش، بثياب بالية ونظرات تائهة لا يكاد يُعرف لها ملامح. رقّ له قلبهم، ففرشوا له ما تيسّر من زاد، وسقوه من ماء الكرامة ما يُذهب الظمأ ويُنعش القلب، دون أن يدروا أنهم أمام فلذة كبدهم. وحين امتلأ جوفه وشكرهم بصوت خفيض، بدأ ينزع أردية التخفي، قطعةً تلو الأخرى، وإذا بالدهشة تنفجر في المكان كبرقٍ مباغت... لقد كان هو، "حسينهم".

تسترسل والدتها في سرد الذكريات، وقد تهادى في صوتها دفء الحنين، وهي تعود بذاكرتها إلى تلك الأيام البعيدة،

حين كانت لم تتجاوز العاشرة من عمرها. تحدثها عن ابن العمة، ذاك الذي منحها أولى دروس الشجاعة. كانت، بإرشاده وتكليف منه، تخوض مغامرات الطفولة بجرأة تفوق سنها، تعبر صفوف رجال الأمن بخطى بريئة واثقة، تخفي الرسائل في أرغفة الخبز، وتخبئ المناشير تحت عباءتها السوداء، تمضي في دروب الخطر بعينين لا تعرفان الخوف، تبتسم للسماء كأنها تؤدي طقساً من طقوس النقاء.

لم تكن تدرك آنذاك أن خطواتها الصغيرة كانت تسهم في تشييد حلمٍ عظيم، ولا أن تلك المهام البسيطة الظاهرة، كانت تمثل لبنات أولى في صرح الكفاح. كانت تعود من مهماتها وهي تحمل في عينيها بريق النصر الطفولي، يضيئه ذلك الوجه الباسم لابن العمة، الذي كان يلقاها دوماً بابتسامة راضية، تنبض بالفخر والتشجيع.

ومن تلك اللحظات الأولى، غُرِست في نفسها جذور الجرأة، وتفتحت فيها أكمام العزم. منه تعلّمت أن تكون صلبة لا تنكسر، شجاعة لا تهاب المجهول، فصارت جسارة الطفولة رفيقة دربها في مسارات الحياة كلها، تلهمها أن تمضي قُدماً مهما اشتدت العواصف. لقد شكّلت تلك التجربة البريئة الأساس الروحي لرحلة كبرى، سارت فيها بروحٍ لا تلين، وقلبٍ لا يعرف التراجع.

أما والدها، فيستعيد، بابتسامة ممزوجة بالحنين، كيف كان يُكلّف من قبله أحيانًا بمهامٍ بسيطة لا تثير الشبهات: يروي أحداها بفخر كيف أنه في أحد أيام الصيف الملتهبة في سوق السراي بالنجف الاشرف، وما كان عليه سوى أن يصرخ بجملة واحدة لا غير: "يسقط الاستعمار"، ثم يدخل محلّ عمله بهدوء ليواصل عمله. لم تكن الجملة عادية، بل كانت شيفرة الانفجار. وما إن نطقها، حتى اكتظ السوق والطرقات حوله بأكبر تظاهرة شهدتها المدينة.

ان أكثر ما خلّده ابن عمتهما حسين/ سلام عادل في ذاكرتهما، تلك الحادثة في زقاق ضيّق لا منفذ له، حين اجتمع سلام عادل برفاقه لأمر حزبيّ عاجل، فحاصرهم رجال الأمن بعد وشاية مؤكدة بمكانهم. لم يكن ثمّة مخرج، لكن عبقريّ التخفي لم يَخذله حدسه. خلع ملابسه، عفرها بتراب البيت وأوساخه، ثم ارتداها مجددًا كمن خرج من قاع البؤس، يترنح كمتسول اخرق. تقدّم نحو رجال الأمن، يمدّ يده المرتجفة طلبًا للصدقة، لينهره أحدهم قائلاً: "ابتعد من هنا أيها المجنون!"... دون يعلموا أنهم قد طردوا للتوّ ذات الرجل الذي جاؤوا لاعتقاله.

ومن ملامح الأسطورة أيضًا، أنه كان حاضرًا باسمه وهويته في إحدى المؤتمرات الشيوعية الدولية في موسكو، دون قناع أو تمويه. حين لاحظ أنّ أحد المصورين يُصرّ على تركيز عدسته عليه بتكرار دون غيره من ممثلي الأحزاب، اقترب منه بهدوء وقال: "أنا أيضًا أريد أن

أجرّب التصوير، دعني أراك من عدستك." أخذ الكاميرا، فتحها أمام الجميع، أخرج الفيلم، ثم أعادها إليه قائلاً: "أعرف جيدًا ما غرضك... والآن، عد إلى أسيادك".

هكذا كان **سلام عادل**، رجلًا يتنقّل بين الظلّ والضوء، يبني مجدًا في صمت، ويحترف المراوغة بعبقرية لا تمنحها إلا التجربة والولاء. في نظر والديها، لم يكن مجرد اخ او ابن عمة، بل كان الوعد المتحقق، والقصيدة التي كُتبت بالدم لا بالحبر، والأسطورة التي لم تنتهِ بانتهاء فصولها، بل بقيت متقدة في الذاكرة، حيّة في الوجدان، تتردّد كلما ذُكر الوطن أو النضال أو المعنى الحقيقي للبطولة.

في زمنٍ تُختزل فيه البطولات في الكلمات، يبقى سلام عادل شاهدًا على بطولة لا تتطلّب منبراً، بل تتجلّى في فعلٍ حقيقيّ، في ذكاءٍ نادر، في شجاعة لا تعرف الانكسار، وفي حكاياتٍ رواها والدان بسيطان، لكنهما حملا إرثًا من المجد لا يبهت. وكأن البطولة لا تعرف الموت ما دام هنالك من يرويها."

سلام عادل، لم يكن رجلاً... بل كان سؤالاً كبيرًا عن الحرية، عن الشجاعة، عن معنى أن تحيا مقاتلاً وتموت واقفًا حتى الرمق الاخير. في زمن تهاوت فيه المعاني، سيبقى هو المعنى.

## 4. شجاعة الأم زهرة

مع تصاعد حملات التفتيش التي شنّها الأمن الملكي ضد الشيوعيين ومن يُشتبه بانتمائهم للحزب، في أوائل خمسينات القرن الماضي، أضحت بيوت الشيوعيين، أو من دارت حولهم الشبهات، مسرحًا لمداهمات فجائية ومضايقات مستمرة. وكان منزل زهرة، الفتاة الصغيرة، واحدًا من تلك البيوت التي طالها الشك، حين وُشي بأحد اخوتها واتُّهِم بالانتماء إلى الشيوعية.

في فجرٍ كالح، حاصر الأمن بيتهم باصرا على اقتحامه وتفتيشه بحثًا عمّا يثبت التهمة. لكن زهرة المتلفعة بعباءتها

السوداء كأنها درع من عزيمة، رغم صغر سنها، وقفت كالسد المنيع أمام الباب، تملأ المكان بهيبة لا تقارن، وصوتها، الذي كان ناعمًا، إلا أنه حمل قوة الحق واليقين. " قالت بثقة لا تتزعزع: -

**لن تدخلوا هذا الدار إلا بعد أن أفتّشكم بنفسي... من يدري؟ لعلّكم أنتم من يزرع ما تتهمون به أخي البريء".**

تلقّت العيون المقتحمة كلامها بدهشة، إذ لم يرَ رجال الأمن من قبل مثيلًا لهذه الجرأة النابعة من قلب فتاة في ريعان الصبا. تكسّرت لحظتها حدّة المداهمة، وارتبكت خطوات العسكر أمام منطقها النقي، وجرأتها الناصعة وانصاعوا لطلبها، كأنهم أمام قاضٍ عادل لا يُردّ له حكم.

وفي اليوم التالي، لم يُخفِ الضابط المسؤول عن الحملة إعجابه بما رآه من شجاعة وسموّ نفس، فطرق بابهم من جديد، لا كمداهم، بل خاطبًا ليد زهرة من والدها، تقديرًا لها، وانبهارًا بروحٍ تأبى الانكسار.

ومن المواقف البارزة التي تُروى عن زهرة، وتدل على ما تمتلكه من شجاعة نادرة وبأسٍ لا يُضاهى، تلك الليلة التي خيّم فيها السكون على البيت وغرق الجميع في سبات عميق، بينما تسلّلت إلى مسامعها حركة مريبة في فناء

الدار. لم تتردد، ولم يعرف الخوف طريقًا إلى قلبها، بل أمسكت بموقد نفطي صغير، وتقدمت بخطى ثابتة صوب مصدر الصوت، تحمل في يدها النار والإصرار.

وما إن لاحت لها صورة شبح غريب – لصّ باغٍ – حتى باغتته برمية خاطفة، قذفت بها الموقد نحو جسده، فأمسك اللهب بثوبه واشتعلت فيه النار، ليرتد مذعورًا مولولًا، يطلب النجدة وهو يفرّ من أمامها صارخًا. عندها استيقظ أهل الدار على جلبةٍ عارمة، وتناقلوا ما فعلته زهرة بدهشة وإعجاب، وكيف واجهت الخطر بمفردها دون أن ترتجف أو تتراجع.

ويروي من عرفها، أنّها ذات ليلة حالكة الظلام، حاول أحد اللصوص التسلّل إلى منزلهم متسلّقًا السياج. وما إن ادلى بإحدى قدميه، وهمّ بالأخرى ليلحقها، حتى انقضّت عليه زهرة بجرأة مذهلة، وأمسكت بعزمٍ لا يلين "موضع ألمه"، ليُطلِق صرخة موجعة دوّت في المكان، مغموسة باللعنات والندم. وحينما استيقظ اهل البيت على وقع الجلبة، روت لهم زهرة الحادث، فملأت ضحكاتهم أرجاء الدار، ممزوجة بالدهشة والفخر.

قد كانت زهرة، في كل موقف، امرأة تتجاوز الخوف، وتؤكد بفعلها حكاية امرأة لا تُقهر.

## 5. القربان.. قسوة التضحية

في لحظةٍ استثنائية، لحظةٍ كانت مسكونة بكلِّ ما في الكون من رعب ويأس، حملت الأم ابنتها البكر كما يُحمل الخروف إلى الذبح، ووضعتها في وسط باحة الدار، باتجاه القبلة. كان جسد الطفلة الغض يرتجف من الخوف والذهول، فيما دوّى صوت الأم كالرعد، يخترق صمت المكان، وهي تقسم بصوتٍ متهدّج، مخنوق بالحسرة والرجاء مخاطبة الله والجميع، وفي مقدمتهم زوجها:

**"أقسمتُ بالله العلي العظيم، إن نجا حسين من الإعدام، لأجعلنّ ابنتي هذه قربانًا له... نذرًا لا رجعة فيه، وليشهد الجميع على قسمي"!**

كانت تلك اللحظة واحدة من أشد اللحظات ألمًا في حياة الطفلة، رغم أن وعيها بالحياة والموت لم يكن قد اكتمل بعد. لكنها، بقلبها الصغير، أدركت أن هناك كارثة تتفجر في قلب أمها، أن شيئًا فادحًا يوشك أن يسلب من البيت دفأه، ومن القلب نبضه.

في ذلك اليوم المشؤوم من شباط عام 1963، سقط الخبر كالصاعقة على البيت: اعتقال حسين/ سلام عادل، ابن عمة والديها، على يد سلطات البعث، وتعذيبه في أقبية "قصر النهاية"، بعد الانقلاب الدموي. عندها ارتجّ البيت كله، ولكن من تهشّم حقًا كانت الأم. كأن قلبها انفلق على عتبة الباب، وراحت تتلوّى تحت وطأة الألم، وكأن السنين كلها اجتمعت ليسلبها اخًا لم يكن يشبه أي اخ، بل كان امتدادًا لروحها.

ولهذا، لم يكن مستغربًا أن تصرخ الأم بتلك الطريقة الجنونية. لم تكن صرخة نذر فقط، بل كانت صرخة من يفقد روحه، من يرى الموت يقترب من عينيه على هيئة غياب. كانت صرخة الأمومة، والخذلان، ووشائج القرابة الذي يستحيل على اللغة وصفه.

الطفلة، المستلقية هناك في الباحة، لم تكن تفهم آنذاك معنى النذر، ولا ما يعني أن تكون قربانًا. لكنها أحسّت بكل شيء. أحسّت أن أمها تتألم بطريقة لا يمكن لعينٍ أن تراها، ولا لقلبٍ صغيرٍ أن يتحملها. رأت صورة والدتها ببشرتها

البيضاء الجميلة قد تحولت في تلك اللحظات الى زرقة قاتمة مخيفة.. رات في عينيها لونًا غريبًا، مزيجًا من الرماد والزرقة، كأن الحزن انتزع منها الدماء وأطفأ شعاع الحياة في محياها.

لم تنسَ الطفلة هذا المشهد يومًا. ظلّ راسخًا في ذاكرتها كشاهدٍ لا يموت، يرافقها في يقظتها ومنامها. في كل لحظةٍ من حياتها، كلما رأت وجه أمها أو سمعت اسم "سلام عادل".

كان ذلك القسم يعود صداه كأنّه يُتلى الآن. لم تعد ترى نفسها كما كانت، بل شعرت دومًا أنها القربان، شاهدًا حيًّا على حكايةٍ تفيض بالإخاء، وتختلط فيها مشاعر الفقد بالفداء.

أن تهب أمٌّ ابنتها قربانًا، هو وجعٌ لا تقوى اللغة على احتوائه. لكنه أيضًا صورة من أعمق صور العطاء... ذلك العطاء الذي لا يُقاس بالكلمات، بل يُقاس بما يُنزع من القلب، وبما يُراق من الروح.

لقد كان ذلك القسم لحظة انفجار داخلي، حيث تصادمت مشاعر الحب والخوف، الأمل واليأس، الحياة والموت. ولم يكن قسمها موجَّهًا لله فقط، بل كان تحدّيًا للموت نفسه، صرخة أمّ في وجه السلطة والقدر، في وجه الظلم الذي يغيب الأعزة في المعتقلات.

سنوات مضت، والمشهد ما زال حيًّا في الذاكرة، نابضًا بوهج الحزن ودفء الانتماء. الطفلة كبرت، وأصبحت إمرأة تحمل بين أضلاعها قلبًا مشبعًا بأسطورة تلك الليلة، وتلك الأم، وتلك الصرخة.

لم تندمل تلك الندبة أبدًا، بل ظلت تؤرّقها، وتعلّمها أن هناك فداء لا يشبه الأقدار، وتضحية لا تُقال بل تُنزف.

وإن كانت الطفلة قد نجت من النذر، فإنها لم تنجُ من أن تكون شاهدة عليه، ممهورةً به، تحمل ثقله كحكاية، ودمعته كذاكرة، وعظمته كإرث لا يموت.

## 6. اقتران الوالدين..

## الرحيل الى العاصمة

حين ضاق فضاء البيت بأصداء الفتوة، وتزاحمت الأرواح الغضة في زواياه، كانت أمها " زهرة " ذات الإثني عشر ربيعًا واحدةً من أولئك الصبيان والصبيات، ترفل في بؤس اليُتم بين جدران لا تتّسع إلا للمزيد من الحيرة. وهناك، اتخذ الأب قراره، بأن يزوّج بناته اليتيمات إلى أبناء أخيه اليتامى أيضًا، في زواج مبكر لا يحمل من القدر إلا عنوان الخلاص.

ووسط تنافس الأخوة، الذين تنازعوا الجمال النادر الذي امتازت به زهرة، رست الكفة أخيرًا لابن عمها حسين،

فكانت من نصيبه، وكأنها هدية قدّر لها أن تُسلّم قبل الأوان.

ومع بزوغ بداية جديدة، ارتحل الزوجان الشابان، يصطحبان معهما طفلتهما الصغيرة، من النجف إلى العاصمة، بحثًا عن فرصة للعيش الكريم. هناك، ساقتهم الأقدار الطيبة ليستأجروا غرفةً لدى عائلة اشتهرت بالنزاهة وطيب السمعة، وكأن المدينة، برغم صخبها، أرادت أن تفتح لهما ذراعًا رحيمة.

زهرة، وهي القادمة من مدينة تحفظ أحلام بناتها في الصدور، أرادت أن تكون كما بنات العاصمة، أنيقة، ندية الحضور، متألقة رغم ضيق ذات اليد. ولأن الأنوثة فيها كانت تُزهر برفق، اعتنت بجمالها البسيط كمن يلوّح بأمل خفي للحياة، وكأنها تقول لها: "أنا هنا، بين أنقاض الفقد والغربة، أستحق أن أزدهر".

رغبت زهرة، رغم قسوة ما مرّت به، أن تكون امرأة لا تنكسر ولا تذوب في الظلال، امرأة تصنع حضورها بقوة الإرادة لا بالانزواء، وبالعمل لا بالشكوى. ولذا عقدت العزم على أن تتقن كل ما يتعلق بتدبير شؤون المنزل والعلاقات الاجتماعية، فخاضت رحلة تعلم جديدة، مشبعة بالإصرار، بعد أن نالت حريتها من قيود الماضي التي كبّلتها ردحاً من الزمن. وجدت نفسها في بيتٍ من عالم

آخر، في كنف من أحاطوها بمحبة لم تعرفها يوماً في بيت أبيها؛ محبة تشبه دفء الأهل وصدق الإخوة.

كانت ربة البيت، التي استأجروا عندها، والتي أحبت زهرة كابنتها، تُعلّمها فنون التدبير المنزلي، إدارة وتنظيمًا، وزهرة بطبعها خدومة، تبادر وتُجيد الإصغاء والعمل، حتى غدت محط إعجاب الجميع. ذلك المديح الذي طالما تاقت إليه، وأفنت عمرها تحلم به، بدأ أخيرًا يتسلل إلى قلبها، يبني ثقتها، ويُرمم ذاتها التي هشّمها الإهمال. فانهمرت زهرة عطاءً لا يعرف الحدود، حتى غدت خدمة الآخرين ومساعدتهم أولويةً لها، وإن كلّفها الأمر أن تهمل ذاتها وعائلتها في سبيلهم.

ومع مرور الأيام، كبرت عائلتها وكبر معها الحمل. أنجبت زهرة خمسة أطفال، وتضاعفت المسؤوليات، فكان لا بد لها أن تستند إلى كتف آخر، فدفعت بإبنتها الكبرى، تلك التي لم تبلغ العاشرة، إلى موقع الأم البديلة، تُطعم إخوتها، وتلبّي حاجاتهم، تنظف وتعتني وتسهَر، وتؤجل الواجبات المدرسية حتى ينام الجميع، لتدرس على ضوء خافت ما استطاعت إليه سبيلاً.

## 7. تعلم التمريض

انتقلت الأسرة إلى منزل أرحب في الحي ذاته، مكوّن من طابقين، سكَنوا في العلوي منه، وكان أجره زهيدًا جدًا بشرطٍ واحد: أن تتولى والدتها ـ زهرة ـ رعاية العجوز المقعدة، صاحبة المنزل، التي كانت ابنتها الممرضة تزورها مرة واحدة في الأسبوع. وكان لا بد أن تختار امرأة يُشهد لها بالأمانة والإخلاص، وكانت زهرة، بسمعتها الطيبة، الخيار الأمثل. فشرعت الممرضة تلقّن زهرة أساسيات التمريض، تُعلمها كيف تُحقن الإبر وتُعالج الجراح، فكانت زهرة تتلقف المعرفة بشغف نادر وسرعة

مدهشة، مما جعل الممرضة تتمسك بها وتعدّ لها حقيبة صغيرة تضم أدوات التمريض، رافقت زهرة في مسيرة حياتها طويلاً.

لكن ما إن اتّسعت دوائر المسؤوليات على كتفي الام زهرة، حتى ألقت بظلالها الثقيلة على قلب طفلتها الكبرى، تلك الصغيرة التي أُجبرت على حمل ما لا يُحتمل، فكبرت قبل أوانها، وذبلت براعم طفولتها في صمتٍ موجع. ومع توالي الضغوط وتراكم الأعباء، تصاعدت حدّة عصبية الام، وانفلت من داخلها موروثٌ قاسٍ، سُقيت جذوره من قسوة والدها، فانبثق منها نحو ابنتها البكر، التي رأت فيها انعكاساً لصورتها كما أرادتها: مثالية، لا تخطئ، ولا تتعثر.

كانت زهرة تُحمّلها ما لا يُحتمَل، وتراها مسؤولةً حتى عن زلّات إخوتها، فتُحاسَب بذنوب غيرها، وتُعاقَب بالضرب والحرمان، كأن الطفولة جُرِّدت منها بقسوة يدٍ كان من المفترض أن تكون ملاذاً.

وتوالى حرمانها، لا من اللعب أو الدمى فحسب بل ومن الحنان ايضا، من حضن أمٍ حانية تبعث الطمأنينة.

وهكذا، أعادت زهرة دون أن تدري نسج الألم ذاته، ذاك الذي خُطّ على طفولتها قديماً، لتبعثه حيًّا في قلوب أبنائها.

وكأن الجراح التي ظنّت أنها اندملت، استعادت نبضها، ولكن هذه المرّة، لا في جسدها، بل فيهم.

## 8. وداعًا للسكن المشترك

رغم كل ما سبق، لم تكن زهرة أمًّا جاحدة القلب، بل امرأة أنهكتها الحياة، تسعى جاهدةً للخروج بأولادها من دوائر الفقر والحرمان.

استطاعت أن توفّر قليلاً من المال، وأفصحت لزوجها عن حلمٍ صغير في قلبها: أن يكون لهم بيتٌ يحتضنهم، ملكٌ لهم وحدهم. استجاب الزوج، وبذل جهداً كبيراً لتحقيق هذه الأمنية، التي كانت لها طعم النجاة من مرارة التنقل والضيق. حتى جاء اليوم الذي انتقلوا فيه إلى منزلهم الخاص، فغمرهم شعور بالاستقرار الذي انتظرته زهرة طويلاً.

كبر الأبناء، لكن قسوتها ظلّت كما هي، سِمةً راسخة في تعاملها، لا تهتز بسهولة. حتى جاء ذلك اليوم الفاصل، يوم وقفت فيه ابنتها الكبرى على عتبة التغيير، وقفة لم تكن في حسابات زهرة. كانت تنوي كعادتها أن تصفعها، غير أن الفتاة أوقفت يدها، أمسكتها بقوة وثبات، وقالت بصوتٍ مختنق لكنه صادق: ـ

**"كفى، وألف كفى. أنا الآن في الثالثة عشرة، لم أقصّر يوماً في طاعتك، حتى وإن جاء ذلك على حساب مشاعري. صبرت على إهاناتك، وتحملت ضربك كثيراً، لكن آن الأوان لتفهمي... لقد كبرتُ بما يكفي. لم أعد أطلب حبك فقط، بل احترامك، ذاك الذي كنتِ تمنحينَه للغرباء أكثر مما منحتِنا نحن، أولادك".**

كانت كلماتها كصفعة عميقة، لا في الوجه، بل في الوعي. أيقظت زهرة من غفلةٍ طالت، فاهتزّت من الداخل، وتوقّفت عند مرآة الذات ترى فيها انعكاس الألم، لا كما عانته فحسب، بل كما ورثته. كانت تلك اللحظة فاصلة، أشعلت شرارة التحوّل، وأجبرتها على إعادة التفكير في طريقتها مع أبنائها، وخاصة تلك الفتاة التي دفعت الثمن الأكبر. ومنذ ذلك الحين، بدأت زهرة تخطو بخجلٍ نحو التغيير،

نحو استعادة ما يمكن استعادته من دفء العلاقة. صارت أقرب، أكثر حناناً، أمَّا تحاول أن تُحب لا كما كانت تتمنى أن تُحَب، بل كما يستحق أولادها أن يُحَبّوا. بدأت تُصغي، تُربّت على الأكتاف، وتحتضن بحذر، وكأنها تخشى أن ينكسر شيء ما داخلها لو أفرطت في العطاء.

لم تختفِ عصبيتها تماماً، فالجراح القديمة لا تبرأ دفعة واحدة، لكنها أصبحت تحاول كبحها، تحاول أن تكسر السلسلة التي قيّدتها بها طفولتها، كي لا تورثها من جديد.

تحوّلت زهرة شيئاً فشيئاً من أم تُخيف، إلى أمّ تُصادق. صارت علاقتها بابنتها الكبرى أكثر نضجاً وعمقاً، كأن اعتراف الفتاة الموجع قد خلخل صمت السنين الطويلة، وفتح نافذة صغيرة نحو النور. ومن خلال تلك النافذة، دخل ضوء جديد إلى قلب زهرة، ضوءٌ دافئ، لا يُشبه النيران التي كانت تشتعل فيها، بل يُشبه السلام الذي انتظرته طويلاً، دون أن تعرف أنها هي من كان عليه أن يبدأ الخطوة الأولى نحوه.

## 9. زهرة، حضن الرحمة في عتمة الليل.

في حضن الليل، حيث يسود السكون وتغفو الأزقة على أنفاس النائمين، دوّى صوت الطرق على باب بيتهم، لكنه كان مختلفًا هذه المرة. لم يكن طرقًا صاخبًا كمن يستغيث في فزع، ولا كان واثقًا كمن يطلب العون في يقين، بل جاء مترددًا بين الخجل والاضطرار، كأنه يخشى أن يثقل بطرقه على صدر الليل.

نهض والدها على الفور، وحين فتح الباب، تطلعوا إلى وجه غريب يتوارى خلف ستار القلق والاستعجال. بادر بتعريف

نفسه على عجل، قال إنه مرسل من قِبل نجوى، أقرب صديقاتها في المدرسة، وأخبرهم بصوت مختلط بالوجل أن نجوى الآن وحيدة، تتلوى تحت وطأة المخاض في عيادة الطبيبة القريبة من بيتهم، تعاني من حمى شديدة ووضع متعسّر، وتحتاج إلى امرأة تكون إلى جوارها في هذه اللحظة العصيبة.

لم يكن طلب المساعدة أمرًا غريبًا عن بيتهم، فقد كان ملاذًا للباحثين عن العون، وكان قلب والدتها "زهرة" ملجأً للضعفاء والمحتاجين. لم تكن الحاجة تمرّ أمامها دون أن تمدّ يدها، لم تتردد يومًا في تضميد الجراح، أو زرق الإبر للمرضى، أو في مواساة أمٍّ تنزف صرختها مع مولود جديد. كانت تسبق الليل قبل أن يختطف الأرواح، وكأنها قد نذرت نفسها لتكون سندًا في ساعات الألم والضياع. وكانوا جميعًا يدركون أن العطاء قد كُتب عليها كما كُتب عليهم أن يكونوا ظلًّا لها، معينًا لا يتأخر.

لكن تلك الليلة كانت مختلفة... كان في صوت الرجل، في ترديده، في ذكر اسم نجوى تحديدًا، ما جعل القلق يتسلل إلى أعماقها كتيار بارد يتسلل إلى العظم. نجوى؟ كيف تكون وحيدة في لحظة كهذه؟ كيف صار بها الحال إلى أن تحتاج إلى يد غريبة بدلًا من أهلها؟ وهي في حالة مخاض؟

لم تمنحها والدتها وقتًا للاستغراق في التفكير، هرعت تتهيأ للخروج، ارتدت عباءتها في عجالة، أعدّت حقيبتها الصغيرة التي كانت دائمًا حاضرة لمثل هذه المواقف، ثم التفتت نحو ابنتها بنظرة أدركت معناها دون أن تنطق بكلمة. لحقت بها، لكنها توقفت عند الباب، حيث كان الرجل لا يزال واقفًا في قلق. نظرت إليه وسألته بشيء من الحدة التي لم تستطع إخفاءها:

- **"من تكون أنت بالنسبة لنجوى؟"**

خفض الرجل رأسه وكأنه يحاول التملّص من السؤال، ثم قال بصوت خافت :

- **"أنا خطيبها... أو زوجها"**.

تجمدت في مكانها، وشعرت وكأنها لم تسمع جيدًا. كيف ذلك؟ لقد كانت تعلم أن نجوى منذ أن تركت المدرسة لم تتزوج بعد! لكن الرجل لم يكن في موضع دفاع أو تفسير، بل كان فقط يرجو المساعدة، يتوسل بعينيه أكثر مما تنطق به شفتاه.

أما والدتها، فلم تعبأ بأسئلتها ولا بذهولها، فالموقف كان يتطلب العطاء لا التساؤل، الإغاثة لا الأحكام. دون أدنى

تردد، اندفعت مع الرجل نحو العيادة، حيث كانت نجوى بين الحياة والموت، تصارع وحدتها وألمها في أوج احتضار الليل.

أما هي، فبقيت خلف الباب المغلق، تتنفس وجعًا لم تفهمه بعد. عاد الجميع إلى النوم، لكن رأسها كان أشبه ببحر هائج، يعجّ بالصور والتخيلات، كل واحدة منها أشد قسوة من سابقتها. كانت تعلم أن الحياة ليست عادلة دائمًا، وأن نجوى كانت على علاقة برجل ما وقد عانت كثيرًا بسبب هذه العلاقة، لكن لم يخطر ببالها أنها ستصل إلى هذه اللحظة. تساؤلاتها لم تهدأ، وشعرت كأنها أمام باب جديد من الأسرار، باب يوشك أن ينفتح ليكشف ما لم تكن مستعدة لمعرفته بعد.

كانتا صديقتين لا تفصل بينهما الأسرار، تتقاسمان اللحظات كما تتقاسمان الهمسات، بلا تصنع أو تكلف. منذ سنوات الدراسة الأولى في الثانوية، كانت تعرف أدق تفاصيل حياة نجوى: من أصغر الخبايا العائلية إلى أكثر الأسرار خصوصية.

عرفت كل شيء عن عائلتها: والدها يعمل في محافظة بعيدة عن العاصمة، لا تراه العائلة إلا مرة كل شهرين، وأمها التي تحمل على عاتقها مسؤولية تربية أبنائها

الأربعة، ومن بينهم الأخ الأكبر ذو الستة عشر عامًا، الذي كان يتباهى بحمل سكينه في جيبه، متوهمًا أنه درع العائلة وحاميها من العار والاعتداءات.

كانتا تجدان متعة خفية في العودة من المدرسة سيرًا على الأقدام، تقطعان الطرقات الطويلة، غير مكترثتين للوقت، غارقتين في أحاديث لا تنتهي، تحللان شؤون الحياة وتنثران الآراء حول كل شيء وأي شيء.

لكنها بدأت تلاحظ تغيرًا في ملامح نجوى؛ بريق عينيها المتقد صار أكثر شرودًا، شغفها بالدراسة تراجع، وأيام غيابها أصبحت متكررة. لم تنتظر طويلًا حتى اعترفت لها، بصوت تملؤه السعادة والرجفة، بأنها وقعت في الحب.

فرحت لأجلها، حبًّا بفرحها، وسألتها بفضول عن المحظوظ الذي خطف قلبها. نظرت إليها بعينين يشع منهما ضوء غريب وقالت: إنه صاحب ورشة التصليح القريبة من منزلهم، ذلك الرجل الذي أحضرته والدتها لإصلاح التلفاز المعطل. قالت إنهما أحبا بعضهما من النظرة الأولى، حتى إنه رفض أن يتقاضى أجره عن التصليح، فدعته والدتها إلى العشاء عرفانًا بالجميل. ومنذ ذلك اليوم، صار يتردد إلى بيتهم، تراقبها عيناه بحب واضح، وتتركهما والدتها يجلسان معًا لساعات، وكأنها ترعى هذا الميل الناشئ

بينهما. استمعت إليها حتى النهاية، ثم سألتها بحذر:
ـ **"وماذا بعد؟ كيف تخططان للمستقبل؟"**

لكنها صمتت لوهلة، وكأنها تتردد في الاعتراف بشيء يخنق كلماتها. وأخيرًا، بصوت خجول متردد، همست:
ـ **"هناك عقبة... إنه متزوج ولديه أطفال".**

شعرت وكأن صاعقة ضربتها. ارتدت إلى الخلف وتوقفت، قالت بذهول:

ـ **"ماذا؟!"**

نظرت إليها نجوى بعينين مغرقتين بالدموع، ثم تمتمت: ـ

ـ **"لقد زوّجوه بابنة عمه وهو صغير... لكنه لم يحبها قط".**

لم تتمالك نفسها، انفجرت في وجهها:

ـ **"ولكن ما ذنب الأطفال؟ الحب لا يكون حبًا إذا كان خرابًا لبيوت الآخرين!"**

رأت ارتجافه في عيني نجوى، لكنها ظلت صامتة، كأنها لا تريد سماع الحقيقة القاسية التي تنبض بين الكلمات. تابعت بحدة: ـ

**"كيف تثقين برجل يخون زوجته وأطفاله؟ وما أدراكِ أنه لن يخونكِ أنتِ في المستقبل؟ الخيانة طبع متأصل، يا نجوى، لا يتغير بسهولة... فكّري بعقلكِ قبل أن يستدرجكِ قلبكِ إلى هاوية لا خروج منها"**.

تركتها ذلك اليوم على أمل أن تفكر مليًّا في كلماتها. ووعدتها نجوى أنها ستفعل. لكنها لم تتحدث عن الأمر مجددًا، وإن مرّ على لسانها عرضًا بعد أيام. ثم، فجأة، انقطعت نجوى عن الدوام المدرسي، وكأنها اختفت من عالمها تمامًا..

كانت الأسئلة تتناسل بين أروقة المدرسة كأنها شظايا ضوء تتكسر على جدران الصمت، تبحث عن إجابة لغياب نجوى الغامض. وكانت الأعين تحاصرها كأنها المفتاح الوحيد لهذا اللغز، فهي أقرب صديقات نجوى، والأقرب دومًا مطالب بالبوح. لم تحتمل وطأة الأسئلة، فانطلقت إلى منزل نجوى، تسبقها ظنونها وتلاحقها الهواجس.

عند عتبة البيت، استقبلتها والدة نجوى بنظرة قلقة، وأخبرتها أن نجوى طريحة الفراش. دخلت غرفتها بحذر، وما إن التقت عينا نجوى بعينيها حتى انتفضت كطائر جريح، وارتمت بين ذراعيها، تقبّلها بحرارة، كأنها تغالب بردًا موغلًا في عظامها. لاحظت شحوبها المقلق، ووجهها

الذي صار كصفحة من رماد، وجسدها الذي غدا ظلًا لنفسه. همست إليها بسؤال حائر:

**ـ "ما بكِ يا نجوى؟ أهو المرض الذي سلبك إشراقتك؟"**
أجابتها نجوى بصوت خافت، كأن الكلمات تستثقل الخروج من بين شفتيها:

**ـ "مجرد مشاكل في المعدة، لا شيء يستحق القلق..."**

لكنها رأت في عيني نجوى ما هو أبعد من مجرد وعكة جسدية. كانت تقرأ ارتجاف السرّ المتخبّط في جوفها، لكنه ظل عصيًّا على الإفصاح. لم تشأ أن تنبش جراحها، ولم تُثر الحديث عن قصتها التي حسبتها طُويت مع الزمن. ودّعتها على أمل أن تراها قريبًا، لكن الأمل شيء، والواقع شيء آخر.

مضى شهران على زيارتها الأخيرة، وحين عاودت الذهاب، لم تكن تتوقع أن تجدها على تلك الهيئة. رأتها وقد امتلأت ملامحها بنضج مباغت، وجسدها المتعب قد ازدادت استدارته بشكل لم تفلح ملابسها الفضفاضة في إخفائه. شعرت بصدمة صامتة تسري في جسدها، لكنها تماسكت وسألتها بحذر عمّا طرأ عليها. قاطعتها أخت نجوى بضحكة ساخرة، قائلة:

**ـ"هذا من أكل الثريد!"**

وضحك الجميع، وشاركتهم الضحك، لكن قلبها كان يختنق بين ضلوعها. في تلك اللحظة، أدركت أن نجوى كانت تخوض معركة لم تجرؤ على البوح بها، مع مجتمع لا يرحم، ومع نفسها التي لم تعد تعرفها. كانت ضحكاتهم تملأ الغرفة، لكن في عيني نجوى كان هناك شيء يشبه الغرق، صرخة لم تجد سبيلها للخروج.

لم يكن قد مضى وقت طويل بعد تلك الزيارة حتى باغتتهم الحقيقة في منتصف ذلك الليل، كطيف داهم يقتحم سكون العتمة. كانت صدمة جعلت كل الأسئلة المعلّقة تسقط دفعة واحدة، حين وصلهم النبأ من خطيب نجوى. عندها فقط، فهمت أن نجوى لم تكن مريضة بالمعدة، بل كانت تصارع زلزالًا هز كيانها، زلزالًا جعلها تفقد السيطرة على حياتها، وتترك الجميع على حافة الصدمة، يبحثون في صمتها القديم عن كلمات لم تقلها، وإجابات لم تجد طريقها إلى النور.

ما إن رحلت والدتها مع ذلك الرجل، حتى شعرت بوحدة خانقة تلتف حولها كأفعى جائعة، أخذت تدور في باحة الدار كأنها تبحث عن منفذ يحررها من شرنقة الغضب التي سرت في عروقها. لم تجد متنفسًا سوى صبّ جام سخطها

على نجوى، تلعن اللحظة التي دخلت فيها حياتها، اللحظة التي منحتها فيها ثقتها. كيف لها أن تتصرف بهذه الرعونة؟ كيف تغامر بمصيرها ومصير من حولها بلحظة طيش لم تفكر في عواقبها؟ لقد خذلتها، غدرت بصبرها عليها وبمحاولاتها المستميتة لفهمها. لم تعد تطيق حتى سماع اسمها، كرهت كل ما يمت لها بصلة، حتى نفسها كرهتها لأنها ذات يوم صدّقت أن نجوى تستحق الصداقة.

كان الليل كئيبًا، ثقيلاً، يسحق أنفاسها تحت وطأته. حين لاح الفجر، استيقظ والدها كعادته، أعدّ نفسه للخروج، ولم يسأل عن والدتها، فقد اعتاد على هذه النداءات الطارئة، اعتاد أن تُطلب والدتها لإسعاف أرواح تتخبط في تيه الحياة. مضى والدها، ولم تمضِ عنها الكآبة. لم تمضِ عنها تلك الهواجس السوداء التي تغلغلت في فكرها.

عادت والدتها، وكانت تحمل بيديها سلة كبيرة تتدثرها لفافة بيضاء. لوهلة، تلاشى كل شيء حولها، كل الأصوات، كل الحواس، ولم يبقَ إلا هذا المشهد المشؤوم. سألتها بصوت مخنوق، مرتعش:

**ـ "ما هذا يا أمي؟"**

فاضت الدموع من عيني والدتها وهي تهمس بأسى:

**- "إنه صبي... طفل جميل... لكنه وُلد ميتًا."**

أرادت أن تُريها إياه، لكنها تقهقرت إلى الخلف، وكأن شبحًا أو وحشًا خرج من السلة ليحاصرها. صرخت، لم تعد تحتمل، لم تعد تريد أن يكون لهذا الليل الموحش امتداد في بيتهم.

**- "لماذا جلبته إلى هنا؟ لا أريده! لا أريد أن أسمع اسم أمه مجددًا!"**

كانت مشاعرها تتدفق كطوفان هائج، لا هدوء فيه، لا اتزان، فقط رفض مطلق لكل ما له علاقة بها.

فهمت والدتها قصدها، لم تجادلها، فقط قالت بصوتٍ حزين:

**-"كادت نجوى أن تموت، وخطيبها... أخبرني أنه لا يستطيع الزواج بها وبطنها منتفخة بهذا الشكل، لكنه سيفي بوعده حالما تستعيد صحتها."**

كلماتها لم تفعل شيئًا سوى إذكاء النار المشتعلة في داخلها.

**-"وماذا عن هذا الشيء في السلة؟"**

سألتها بحدة لم تخجل منها، لم تشفق على شيء. تنهدت والدتها، كأنها تحمل جبال الدنيا فوق كتفيها وقالت:

**- "سيأتي أخوها ليأخذه".**

ضحكت بتهكم مرير، كمن يعجز عن تصديق ما تسمع
**-"وماذا؟ هل سيأتي بسكينه ليغسل العار؟"**

نظرت إليها والدتها بحزن عميق، بعينين تحملان أكثر مما تستطيع قراءته. لم تقل شيئًا، لكن دقات الباب جاءت كفاصل قاطع بينهما وبين صخب أفكارها. كان الأخ قد جاء... جاء لينهي قصة هذا اليوم الذي لم يكن في الحسبان، اليوم الذي ترك في روحها ندبة لم تندمل.

## 10. الوالد، ذلك الذي يقرأ بروحه

كانت تكنّ لوالدها مشاعر حبٍّ عميقة، ممزوجة باحترام مهيب، لا يخلو من ذلك الخوف الذي يُولد من رهبة المكانة وعظمة القلب. كانت تحرص بكل جوارحها أن تكون مبعث فخره، وسرّ اعتزازه، تتشبث بإعجابه كما تتشبث النجمة بوميضها في سماء لا تغفر السقوط.

لقد أحبت والدها حبًّا صامتًا، عميقًا، متغلغلًا في روحها كخيوط الذهب المنسوجة في حرير ناعم، لا يُرى لمعانها إلا لمن يتأمل بقلبه. كانت تراه شامخًا كالنخل، لا تنحني

هامته للعواصف، ونقيًّا كالندى حين يلامس أوراق الصباح الأولى. ورغم الرهبة التي كانت تسكنها أمام هيبته، إلا أن حضوره كان يملأ كيانها بسكينة لا تشبه شيئًا عرفته من قبل. كأن الزمن يتوقف حين يبتسم، أو حين يعلو صوته بغناء المقامات، فينهمر الحنين كما ينهمر المطر على أرض عطشى.

كان كثيرًا ما يعود إلى البيت متأخرًا، منهكًا من طول السعي خلف لقمة العيش، فقد كان يطوي النهار بالليل، يشتغل بصمتٍ وكدحٍ، ليمنح أسرته ما تيسر من حياة كريمة تحفظ كرامتهم ولا تريق ماء وجوههم. وحين يخلد الجميع إلى الراحة في نوم عميق، كانت الوحيدة التي تنتظره، تُحضّر له العشاء، وتجلس قربه تراجع ما تبقى من واجباتها المدرسية، تلك التي لم يسعفها نهار البيت وأعباؤه لإتمامها، إذ كانت الأخت الكبرى، وحمل البيت ورعاية إخوتها كان على كاهلها.

كان والدها يجد في تلك اللحظات الصغيرة لذة خفية، يضيء بها روحه كما يضيء بها قلبها. كان يصغي لما تقرأ، يتابع معها ما تعلمت، ثم يُضيف لها من معارفه ما يعجز عنه الكتاب، خاصة حين يتعلق الأمر بالتاريخ، فقد كان يرويه كمن عاش أحداثه لا كمن قرأها فقط. وكان، في

ختام جلستهم، يمدّها بآخر ما قرأه من كتاب أو قصة، يضعها في يدها وكأنه يضع فيها كنزًا ثمينًا.

تلك الساعات القليلة التي تجمعهما، في سكون الليل وصفائه، كانت من أعذب لحظات عمرها، ومن أصدق ما ذاقته من سعادة. كانت تكفيها لتُحب الحياة، ولتؤمن أن الحنان لا يُقاس بالعناق، بل بذلك الأمان الذي يمنحه صوت والدها وهو يشاركها المعرفة والحياة.

لم يكن حبّها له محض امتدادٍ للحضور الأبوي في حياتها، بل كان شعورًا متجذّرًا، تنامى في أعماق قلبها كما تنمو الشجرة من جذرها الوفيّ، يسقيها الوفاء وتحتضنها الذكرى. لم تكن مواقفه مجرّد صور عابرة في ذاكرة الطفولة، بل كانت ومضاتٍ من نورٍ لا ينطفئ، بصماتٍ خالدة حفرت مكانها في وجدانها، تشعُّ دفئًا كلّما عصفت بها وحشة الحياة.

تتذكره في مواسم الفرح، في العيد حين كان يصطحبهم إلى مدينة الألعاب او حديقة الحيوان، ليُدخل السرور إلى قلوبهم كما لو كان يطوّقهم بجناحي ملاك. في المواسم الثقافية، كان لا يفوّت فرصة ليأخذهم إلى المعارض الدولية، يفتح أمامهم أبواب العالم ويلقّنهم بأن للحياة ألوانًا تتجاوز حدود المكان. وحين كانت الأرواح تتوق للسكينة، كان يأخذهم

في رحلات روحانية إلى المراقد المقدّسة، يُلبسهم بهاء الطهر، ويزرع فيهم روح السكينة.

لم يكن بخيلًا في عطاءه، بل كان كريم الروح قبل أن يكون كريم اليد، يغدق عليهم الهدايا كما لو أنه يمنحهم قطعًا من قلبه، يزين بها أيّامهم ويُطرّز بها ذاكرتهم بالحب. من بين تلك المواقف التي حفرت اسمَه على جدار قلبها، تبرز ذكرى لا تنسى: جاء ابن عمّه ذات مساء، متبخترًا بأمواله وأملاكه، رجلٌ تزوّج من امرأتين وأنجب عددًا من الأبناء كأنما الحياة عنده أرقام تُعدّ لا أرواح تُفهم.

عرض على والدها أن يخطبها، حاملًا ماله وشراكته على طبق من ذهب، ظانًّا أن القلوب تُشترى كما تُشترى العقارات. لكنّ والدها كان يرى أن القلب لا يُمنح إلا لمن يطرق بابه بلطف، لا لمن يحاول اقتحامه بثراءٍ أجوف. أراد أن يشتري قراره، لكنّ قراره كان عصيًّا على البيع، لأنه لم يكن وليد الظروف، بل ثمرة عزيمة، وإرادة لا تعرف الانكسار.

جلَس الرجلان على مائدة الشاي، وكان ابن العم يظن أنه يحسن العرض، لكن ما إن أنهى حديثه المليء بالأرقام والامتيازات، حتى جاءه الرد، لا كالسيف، بل كقيم تنتفض

دفاعًا عن جوهرها. قال والدها، بثبات راسخ ونبرة قاطعة، كلمات تحفرها الذاكرة في أعمق أعماقها: ـ

**"ليس عندي بنات للبيع... أنا لست من تبحث عنه".**

كانت تلك الجملة كبيان شرف، إعلانًا صريحًا أن الكرامة لا تُقايض، وأن بناته لا يُقدّرن بثمن. لم تكن فقط كلمات، بل كانت موقفًا يفيض بالأبوة الحقّة، ويصدح باسم المبدأ الذي لا يساوم عليه.

كان يؤمن بأن قلب ابنته هو صاحب القرار، وأن لا جاه ولا مال يعلو على صوت الرغبة الحرة. أقسم ألا يزوج بناته إلا لمن اختارته أرواحهن، لا لمن تفرضه الظروف أو تمليه الأعراف. حتى أخته الوحيدة، التي قضت عمرًا تنتظر أن تتوَّج مساعيها بزواج ابنة أخيها من ابنها، قوبلت بالرفض، لا من ابنته فقط، بل من الحقيقة التي تجلّت في تلك اللحظة حين طردتها الفتاة من بيتهم بسبب اصرارها على تنفيذ رغبتها. لم يغضب، لم يوبّخ، بل بدا على وجهه الرضا، وافتخارٌ يلمع في عينيه كالشمس حين تتجلّى في لحظة صفاء نادر.

تلك اللحظة، بكل ما حملته من شجاعة وصدق، كانت منعطفًا فارقًا في روحها؛ أدركت فيها أن أباها لم يكن فقط

سندًا يسند ضعفها، بل كان حصنًا يحمي قرارها، ويُؤمِن بها كما يُؤمِن الإنسان بما لا يُشترى ولا يُستعار. شعرت حينها أن ثقتها بنفسها استمدتها من ثقة أبيها بها، وأنها ما كانت لتقف ذلك الموقف، لولا أنه وقف خلفها، يؤازرها بصمته الراضي..

كان والدها، إلى جانب نُبله الفطري الذي يشعّ كالنور، حِرفيًا نادر المثال، تنطق أنامله الماهرة بجمال الصنعة كما تنطق القلوب العاشقة بلغة الهوى. لم تكن مهارته اليدوية محض حرفةٍ تؤدى، بل كانت فنًا متقنًا ينبع من روحه، يسكبه في كل تفصيلة يصنعها، وكأنما يوقّع عليها اسمه خفيًا ببصمة قلبه. ورغم ما تطلّبته الحياة من كدٍّ جسديّ رافقه منذ طفولته المليئة بالمعانات، فإن إشراقة فكره بقيت حاضرة، وتأجج عطشه للمعرفة لم يخفت يومًا بل أزاد اشتعالا.

لقد أدركت أن والدها لم يكن أمّيًّا بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل كان رجلًا اغتُصبت منه فرصة التعليم المدرسي في طفولته، فقرّر أن يتعلّم وحده، بإرادة لا تلين. اختار الكتب رفيقة عمره، ظلّه الظليل، ومتنفّسه الأعمق في عالمٍ لم يُنصفه. كانت لا تفارق ناظريه إلا حين يُسدل الجفن مُنهكًا، بعدما ينهشه التعب ويأخذ الجسد حقّه من الراحة. لم يكن يقرأ كغيره؛ كان يغوص في الكتب كما يغوص

الغريق في بحثٍ يائسٍ عن الحياة، وكأن الكلمات حبال نجاة تتدلّى من السماء، تمسك بروحه وتعيد إليه أنفاسه. كان شغفه بها شغف من ذاق طعم الحرمان، ثم أُهدي فجأة كنزًا لا يُقدّر بثمن. كانت هي، الطفلة التي ترقب المشهد بصمت، تراه مستغرقًا بين الصفحات كأنها جزء من كيانه، وكثيرًا ما خُيّل إليها، في لحظات التأمل تلك، أنه لا يقرأ الحروف بعيونه، بل يتنفسها برئتيه، يستنشق من سطورها ما يُقيم له يومه ويحيي فيه المعنى.

كانت تشعر، وهي تراه منكبًا على الكتاب، بين صمت الحجرة ودفء المصباح المتواضع، أنه لا يبحث عن معلومة أو متعة، بل يبحث عن ذاته التي سرقها الزمن في أول الطريق. كان الحرف له ملاذًا، والسطور وطنًا بديلًا، والكتب تعويضًا سماويًا عن فقدٍ لم يُعلنه، لكنه بقي حيًّا في روحه، يلوّح له من بعيد.

ورغم صغر سنها، كانت تلتقط بإحساسها الطفولي تلك العوالم غير المرئية، فتراها في عينيه، وترتجف لها في صوته حين يقرأ بصوتٍ خافت. لقد أورثها، دون أن يدري، هذا الحب العميق للمعرفة، وجعل من القراءة جسرًا خفيًا يربط بين روحيهما. أصبحت تُدرك، مع الوقت، أن ما ورثته عنه لم يكن مجرّد حب للكتب، بل إيمانًا داخليًا بأن

الإنسان حتى وإن حُرم من التعليم يستطيع أن يبني نفسه حجرًا حجرًا، ما دام يمتلك الشغف، ويؤمن بأن الحروف تُضيء الطرق المظلمة حين لا يبقى من النور شيء.

وحين كان يغرق في عمله، تراه يغني بصوت رخيم، شجيّ، يخترق الجدران ويوقظ في القلب طمأنينة لا تُوصف. كان يدق المسامير على وقع الأغنية التي يرددها، كأنه يطرّز لحنًا على وجه الجلد، ويهزّ رأسه في انسجام عذب، كأنه في حالة وجدٍ صافية. في تلك اللحظات، بدا لها وكأنه ليس من هذا العالم، كأنه ملاك هبط بينهم يحمل أدواته، لا ليصنع حذاءً فقط، بل ليُرمم ما في الروح من تعب.

وكان الشعر يسري في عروقه كما يسري الماء في عروق الأرض العطشى. ينظمه بفطرةٍ رقيقة، كأنما وُلد ومعه قافية ووزن، وبخاصة شعر "الدارمي" و "الأبوذية"، وكان كثيرًا ما يُطري زوجته وأبناءه بقصائد صيغت بماء القلب، لا زالوا يحفظون منها ما رسخ في الذاكرة رسوخ الجبال.

## 11. الاعتقال والتعذيب

ما إن يهلّ شهر محرّم، حتى يتوشّح الوالد بالحزن النبيل، وكأن روحه تُبعث من جديد مع ذكرى كربلاء. كان يستحضر المأساة بقلبٍ يفيض ولاءً، ولسانٍ ينسج الشعر من وجع التاريخ ونبض العقيدة. لم يكن نظمه مجرد كلمات تُقال، بل كانت أنفاسه تنقش أبياتًا حسينية تعانق السماء، تجسد واقعة الطفّ بعمقها الإنساني، وتُحيي فيهم حرارة المصاب كأنهم يعيشون اللحظة لا يروونها.

لكن شعره لم يقتصر على سرد المأساة بمعناها الديني وحده، بل كان يحمل في طيّاته نَفَسًا ثوريًّا، يربط بين

مظلومية الحسين ومظالم الحاضر، ويقارع عبر قوافيه كل أشكال الطغيان والاستبداد، كأنّ عاشوراء عنده رسالة متجددة لا تتقادم، تُقرأ في ضوء كل عصر، وتُردد في وجه كل ظالم.

كان والدها يكتب في الليل ما سيردده في النهار. يُلقي أشعاره بصوته الجهوري وسط المواكب الحسينية، فتعمّ كلماته الأرجاء، ويهتزّ لها الجمع الغفير كما تهتز الروح حين تلامسها الحقيقة. لقد كانت قصائده تحمل من الجرأة ما يكفي لإيقاظ الضمير، ومن الصدق ما يجعلها تُحفظ على الألسنة دون أن تبهت، فيتناقلها الشباب وترددها الحناجر بخشوع وثبات.

تلك الأشعار، بما حوته من معانٍ، لم تكن لتُرضي السلطة، التي رأت فيها ما لا يُحتمل من النقد العاري والرفض الجليّ. لقد اعتبروه صوتًا يجب أن يُسكت، ولسانًا لا يُسمح له بأن يُفصح، لأنه ـ ببساطة ـ كان يكتب بمداد الوعي، ويغني بصوت الحقّ، في زمنٍ أرادوا فيه لكل الأصوات أن تخفت، ولكل القلوب أن تذعن.

كانت تراه في تلك الأيام عظيمًا كمنبر، نقيًّا كدم الحسين، ثابتًا لا يهادن، صادقًا لا يخشى الردى، وتدرك تمامًا أن

والدها لم يكن شاعرًا فحسب، بل كان ضميرًا حيًّا، يقف في وجه الجهل والخوف، مستندًا إلى قضية لا تموت.

وجاء اليوم الذي كانت تخشاه، ذاك الذي كانت ملامحه تتسلل إلى قلبها في لحظات القلق الصامت، حتى إذا وقع، خيّم عليها بثقله كالسحاب الأسود. اعتُقل والدها من مكان عمله، ولم يُمهلوه حتى دقائق معدودة ليغلق باب رزقه أو يُلملم أدواته. ساقوه كأنهم ينتزعون ضوءًا من مدينة، بدعوى "استجواب بسيط"، لا يتجاوز بضع دقائق... لكن والدها لم يعد إلى البيت إلا بعد شهرين ثقيلين كالعمر بأكمله.

كانت التهم جاهزة، حاضرة كأكاذيب لا تخجل من وجه الحقيقة. لفّقوا له باطلاً لا يستقيم عقلًا ولا منطقًا: مرةً وسموه بالشيوعية، وأخرى ألصقوا به تهمة الانتماء إلى حزبٍ محظور ـ حزب الدعوة ـ زاعمين أنه يحيك المؤامرات لقلب نظام الحكم، بل تمادوا، فادّعوا أنه يهرّب السلاح والعبوات الناسفة في سلال الرمان؛ تلك السلال ذاتها التي كان أطفاله يترقّبونها بلهفة، مع علب البقلاوة، وأشياء أخرى صغيرة، والتي كان يعرف تمامًا ما تعنيه لهم عودته من كربلاء. فهو حتى في الأيام العادية، حين كان يعود إلى البيت مبكرًا، كانت يداه لا تخلوان من شيء، يضيء قلوبهم.

في غيابه، خفت النور في أرجاء البيت، وغاب الفرح كأنما انسحب من تفاصيل حياتهم بصمت موجِع. ضاقت الجدران، واختنق الهواء، وتسلّل الخوف إليهم كما يتسلّل الشتاء إلى النوافذ، حين يتركها مرتجفة، باكية، لا تستطيع الدفء. كانوا ينتظرون خبرًا يُبدد ظنونهم ويعيد شيئًا من طمأنينتهم التي غادرتهم على حين غرة، حتى جاءهم الخبر الموجع، بعد محاولات مضنية ومؤلمة لمعرفة سر غيابه: والدهم... معتقل!

أصبحوا بلا معيل، بلا سند حقيقي، وكل يومٍ يمرّ كان يحمل في طياته احتمالًا جديدًا للفقد، أو مأساة لا يملكون لها عدةً ولا صبرًا. وفي خضم هذا الغياب الثقيل، كانت والدتها تقف كالجبل، تحاول بكل ما أوتيت من صبر أن تخفي رجفتها عن أعينهم. بدت أمامهم شديدة البأس، متماسكة كأنها لا تنكسر، حريصة على أن لا يتفرقوا، حتى في أبسط المهام التي كانت تضطرهم لمغادرة المنزل، كانت تصرّ أن يبقوا معًا، أن يتقاسموا التآزر كما كانوا يتقاسمون اللقمة. كانت تراها... تراها حين تتهرب إلى أعمال المنزل، تنظف البيت عشرات المرات في اليوم، ليس لأنها تحب الترتيب إلى هذا الحد، بل لأنها كانت تهرب من هواجسها، تكدّ يديها كي لا تفرغ للدموع، تنظف لتُنظّف من قلبها ما علق به من رعب الانتظار.

كانت تبحث عن سبيل، عن بصيص أمل، عمن يمكن أن يستنجد به قلبها المرهق، حتى وجدت ضالّتها في أخيها، الذي كانت له علاقات واسعة في صفوف الحزب الحاكم. لاذت به كما يلوذ الغريق بخشبة نجاة، وكان فعلاً ملاذًا حقيقيًا.

وبعد أيام من القلق الحارق، جاءهم منه ما أعاد النبض إلى عروقهم؛ خبر أن والدهم لا يزال على قيد الحياة، وأنه محتجز رهن التحقيق، مع وعدٍ بإطلاق سراحه فور انتهاء الإجراءات.

في تلك اللحظة، لم تكن والدتها بحاجة لأن تبتسم، فقد فعلت الدموع ما لم تفعله الكلمات: أخبرتهم أنها ما زالت تأمل، وأنهم ما زالوا ينتظرون، لكن هذه المرة، بقلوب أقل وجعًا... وبأملٍ لم يُكسر بعد".

## 12. إطلاق السراح

في عتمة ليلية من شهر ايار 1973 وسكونه، انفتح باب البيت ببطء شديد، كأن من كان خلفه يخشى أن يوقظ الذاكرة قبل أن يوقظ أهله. ما إن انفرج الباب حتى اندفعت الأم كمن يلبّي نداء فطريًا، وإذا بها تنتفض صارخة، تنفجر باكية من الأعماق، كأن أنينًا مكبوتًا انفلت بعد طول كبت. تناهى صوتها الموجع إلى أرجاء الدار، فأيقظ الجميع من سباتهم، وتجمّعوا على عجل في الرواق، حيث كانت المفاجأة في. انتظارهم... إنه هو. الأب!

كان واقفاً هناك، عند حافة الباب الذي أغلقه خلفه بحذر، كأنه يغلق خلفه جحيم الأرض. لكنهم ما أن وقعت أبصارهم

عليه حتى خنقهم الحزن: جسده النحيل، كأنه ظلّ لإنسان، ووجهه الذي شحب حتى ظنوه من الأموات، ولحية كثّة شعثاء، لم يألفها منهم أحد، امتدت حتى منتصف صدره. حاول أن يهدّئ من روعهم، فرفع إصبعه إلى شفتيه بإيماءة صامتة، يطلب بها السكون. عيناه، العميقتان كآبار حزن، أخذتا تطوفان وجوههم واحداً تلو الآخر، كأنه يتأكد من أنهم ليسوا أطيافاً، بل لحمٌ ودم، أحياء لم يمسهم سوء. كانت أولى كلماته، بصوت متهدّج مخنوق بالحنين: ـ ـ **"هل أنتم جميعاً بخير؟ لم يُعتقل أحد؟ لم يُعذَّب منكم أحد؟"** أجابه أبناؤه بصوت متقطع يغلبه البكاء، مؤكدين سلامتهم. عندها، أسند ظهره إلى الباب، وأطلق زفرة طويلة كأنها تحمل وجع السنين، ثم خطى نحو الصالة، تتبعه أنظارهم الغارقة بالدموع. جلس بينهم، وقرأ في عيونهم رجاء الكلام، فقال: ـ

ـ **"الحمد لله... كنت أسمع أصوات استغاثتكم بي من الزنزانة المجاورة كل ليلة، كنت أميّز صراخكم، كنت أسمع أحدكم يصرخ: 'أنقذني يا أبي، أنا أموت. لقد هددوني بكم... وكانوا يعذبونني بذلك، ينهشون قلبي قبل أن ينهكوا جسدي".**

تناول كأس الماء بيد مرتعشة، وشربه دفعة واحدة، كأنّه يغرق عبرته أو يخنق شيئاً لا يريد له أن يُقال. لم يُرِد أن يتحدث عن العذابات التي نُقشت على جسده، لكن يديه وقدميه تحدثت بالصمت عن كل شيء؛ تورم، حُفر غائرة، بقعٌ من السواد والزُرقة، كأنما كانت منفضة لمئات السجائر.

أعدّت له والدتها الحمام، فأبى مرافقتها، خجلاً من أن ترى ما صنعت به أيدي الجلادين. وبعد حين، أخبرتهم:

**ـ "لم يُترك جزء من جسده إلا ونال نصيبه من التعذيب والألم".**

ومع ذلك، ظل هادئاً، حزيناً، كأن روحه في مكان آخر. لم يبك، لم يشك، لكن صوته الصادح الذي عهدوه اختفى، وبهجته التي كانت تملأ البيت غابت.

وحين أشرقت الشمس، وبدأ نهار جديد، ارتدى ثيابه، وخرج إلى عمله كما لو أن شيئاً لم يكن. كأن الحياة تمضي، ولو كان القلب مثقلاً بجراح لا تُرى.

## 13. وداع الاب..

لا تزال آخر صورة له راسخة في ذاكرتها، كأنها نُقشت في روحها لا في عقلها فقط؛ حين ودّعها صباح مغادرتها بغداد. كانت يداه الدافئتان تطبقان على يديها بشدة، كأنه يحاول أن يودع من خلالها قلبه وروحه، وهو يوصيها بالسلامة بعينين تختزنان قلق العالم كله.

دسّ في راحتها مبلغًا من الدولارات، لكنه لم يكن مالًا بقدر ما كان حنوًّا متجسدًا، وأرفقها بورقة صغيرة طُبعت عليها آيات من القرآن بخط يده، كتبتها يدٌ أنهكتها الحياة، لكنها

آمنت أن تلك الكلمات ستحرسها من كل سوء، وأنها ستكون حرزها في الغربة والوحشة. ما زالت تحتفظ بتلك الورقة، وما زالت ترفّ منها رائحة عرق يديه الطيبتين، كأنها تختزن فيها أنفاسه، وأثر حضوره، وشيئًا من دفء الأمان. تستحضر بوجع دفين قبلة الوداع التي طبعها على جبينها في تلك اللحظة، قبلةً حملت من المعاني ما عجزت عنه الكلمات، وكانت، تلك ثاني قبلاته لها في عمر الزمن، بعد أن سبقها بقبلة يوم عودته من السجن، حين دخل البيت متعبًا، مكسورًا، لكنها رأته يومها ملكًا عاد إلى عرشه.

كم كانت تتوق إلى القبلة الثالثة، علّها تخفف عنها ثقل الوداع وتطفئ شيئًا من حنينها الآتي، لكنها لم تأتِ... مضى وهو يلوّح من بعيد، تاركًا قلبه معها، وبقيت هي تحمل صورته الأخيرة حيّة، نابضة، في وجدانها، لم يخفت صداها، ولم يبرد وهجها، كأنه لم يرحل قط... بل كأنه لا يزال حاضرًا، خافضًا صوته في أعماقها، ساكنًا في ضميرها.

# الفصل الخامس

# التجربة

# 1. العودة الى بلغارية

## حزيران، 1981

في تلك الرحلة الهادئة نحو صوفيا عاصمة بلغاريا، كانت تحتضن صغيرها، يرافقها أحد الرفاق، والطائرة تموج بشباب فريق كرة القدم البلغاري ومشجعيهم الذين عادوا مفعمين بالحماسة بعد مباراتهم ضد الفريق اليمني.

بدت الأجواء خفيفة، نابضة بالضحكات والهمسات المتبادلة. وما إن استقرت الطائرة في مدار السماء، حتى دوّى صوت شاب عبر الميكروفون، يطلب يد حبيبته أمام الجميع، مستجمعًا جرأة الحب في لحظة خالدة. ساد الصمت، وتعانقت الأنظار بترقّب نحو "ميلا"، التي وقفت

مذهولة من وقع المفاجأة، وعلى وجهها ملامح دهشة ممزوجة بفرح طفولي نقي. رفعت يديّها بحماس، واتجهت نحوه قائلةً: "نعم". أخرج الشاب خاتمًا من علبة صغيرة، وزيّن إصبعها به، فانفجر الركاب بالتصفيق والتهليل، يطالبون بالقبلة التي تختم هذا المشهد البهيّ.

أعلن الكابتن تهانيه عبر مكبر الصوت، وأتبعه طاقم الرحلة بمباركاتهم، ثم أمروا بتوزيع المشروبات على الركاب احتفاءً بالعروسين. رفعت الكأس مثلهم، هنأتهم، وابتسمت. كانت لحظة سعادة جماعية.

التفتت لتتفقد صغيرها الراقد بجانبها، ثم سرّحت بصرها عبر نافذة الطائرة نحو السماء المشعة بزرقتها اللامحدودة. هناك، وسط الغيم، تسللت إليها الذكريات. عادت بها إلى زمن مضى، إلى حبها الأول، إلى زواجٍ ترك في روحها بصمات لا تُمحى، مليئة بالألم، ومطرّزة بالعِبر. تجربة خاضتها بقلب مفتوح، وعقل لم ينضج بعد، فدفعت الثمن، لكنها خرجت منها أشدّ ثباتًا، وأكثر فهمًا للحياة.

## 2. البدايات

انتهى اليوم الأخير من امتحانات الثانوية العامة، ومعه أسدل التعب ستاره على ملامحها. أخذت نفسًا عميقًا وكأنها تحاول لملمة شتات قواها المتعبة، فكل ما كانت تطمح إليه هو الانسلال إلى سريرها، والنوم بسلام حتى صباح جديد. وبينما كانت تخطو بخطوات مثقلة، متجاوزة باب مركز الامتحانات برفقة إحدى زميلاتها، فوجئت بوجوده هناك، يقف أمامها وكأن حضوره كان مفاجأة تُربك نبضها.
لم تكن تتوقع ظهوره في مثل هذا الوقت، وفي وجود صديقتها تحديدًا. حاولت تجاهله، لكن نظراته المتسائلة التقطت ذلك التهرب. صعدت إلى الباص برفقة زميلتها،

وكأنها تحاول أن تضع بينهما مسافة من الصمت واللامبالاة. لكن زميلتها، التي لم تكن غافلة، همست إليها بأن أحدهم يتبعها. ألقت نظرة خاطفة لتكتشف أنه قد صعد معهم أيضًا. تساؤلات زميلتها لم تجد إجابة، فقد اختارت تغيير الموضوع، متجنبة الغوص في حديث لم تكن مستعدة له.

عندما توقف الباص عند المحطة القريبة من منزلها، نزلت بهدوء، تجر قدميها نحو البيت دون أن تنظر خلفها، وكأنها تحاول الهروب من أفكارها أكثر من أي شيء آخر. ومع كل خطوة تخطوها، كانت الأسئلة تتدافع في رأسها.

هل كانت متسرعة في اختيارها؟ أكان من الحكمة أن تبدأ هذه التجربة الأولى في الحب مع هذا الشخص تحديدًا؟ قلبها المتردد كان يبحث عن إجابة، وروحها كانت تطلب مهلة. شعرت بحاجة مُلحة إلى التمهل، إلى أن تمنح نفسها الوقت الكافي لتقييم هذه التجربة التي ما زالت في بداياتها، وكأنها تتلمس طريقًا مجهولًا بخطوات حذرة وخائفة.

في ذات اليوم، ومع اقتراب المساء، جاءت زوجة الخال "اخته" على حين غرة تزورهم في البيت، تحمل بين يديها سرًا أثقل خطواتها. وما إن انفردت بها حتى أخرجت رسالة صغيرة، كأنما تحمل بين طياتها نبضات قلبه التي لم تجد سبيلًا إلا الورق. قرأت الرسالة بأنامل مرتجفة، وفيها كان

يعاتبها بصمت حروفه عن تجاهلها اياه. جاء إلى بغداد خصيصًا لرؤيتها، فلماذا استقبلته بذلك الجفاء الذي ترك أثراً في أعماقه؟ ثم دعاها إلى لقائه في بيت خالها، كأنما أراد من تلك الجدران أن تشهد على ما لم تُبح به الكلمات.

زوجة الخال ألحت عليها أن ترافقها، وفي دفء إقناعها استطاعت أن تزيح شكوك الأم، فأذنت لها دون أن تعلم المغزى الحقيقي لتلك الزيارة. أتُرى كان ذلك قدراً محتوماً أم خيط ضعف ربطها وجعلها تقف عاجزة عن الرفض؟
وفي بيت خالها، كان اللقاء الذي لا يشبه غيره. عينيه مليئتان بعذوبة العتاب، بينما نبرته امتزجت بين الرقة والانتظار. لم تجد ما تبرر به تجاهلها. بقيت صامتة كأنما تخشى أن يفضح صوتها أسرار قلبها. كانت علاقتهما حتى ذلك اليوم تقف عند حدود التعارف الذي تتخلله نظرات الإعجاب المتبادل، وكأنما هي بداية لرواية لم تُكتب بعد.
مع حلول الليل، وهدوء البيت الذي أخلى أركانه من الأصوات، اجتمع الاثنان في حديث بدا وكأنه يُحفر عميقاً في الذاكرة. كلماته كانت تختبر حذرها، ونظراته تُداعب شيئاً دفيناً في قلبها. وفي لحظة لم يُرد أن يفسدها التردد، اقترب منها بخطوات وئيدة، يمد يده إلى يدها بحنانٍ كاد أن يُغشي عينيها. أمسك بأناملها بحذر يشبه من يحمل أثمن

كنوزه، وكانت تلك اللحظة الأولى التي شعرت فيها بملمس يد رجل غريب، لكنها لم تكن غريبة على قلبها.
دقات قلبها باتت تُسمع، كأنها تخشى أن يفصح إيقاعها عما لا تستطيع البوح به. تركته يقبّل أناملها، قبل أن يرتسم ذلك المسار الخفيف من القبلات الذي وصل إلى نحرها. شعرت وكأن مصيرها قد خطّ بيد خفية في تلك اللحظة. لم يكن ذلك مجرد اقتراب، بل كان إعلانًا غير منطوق بأن قلبها قد اختار، وأنها باتت ترى نفسها أسيرة حبه إلى الأبد.
كانت تؤمن، ببراءة خالصة، أن الرجل الذي يقبّل امرأة يحبها، عليه أن يجعلها زوجة له. لم يكن الأمر مجرد عاطفة عابرة، بل كان قراراً مصيرياً، وكأنما تلك القبلات حملت معها وعدًا لا رجعة فيه، وعدًا بأن تكون له كما أرادت، وكما شاء القدر.
لم تكن تعرف عنه الكثير، ولم تهتم يومًا بالبحث عن تفاصيل ماضيه أو عن أصوله الاجتماعية والعائلية. كان يكفيها ما هو معروف عنه بين الجميع: أنه شيوعي، مثقف، متمرد على قيود التقاليد، ومتحرر من أغلال المجتمع التي تخنق الأرواح قبل الأحلام. لم تره يومًا من خلال عدسة العيوب أو النقائص، ولم تكلف نفسها عناء التساؤل عما يفضل في المرأة أو ما يشترطه في شريكة حياته. لم تكن تلك الأمور تعنيها، فقد كان شاغلها الوحيد هو أن يعاملها بنديّة خالصة، بلا فوقية ولا تحكم. أرادت أن تكون له

صديقة في رحلة الحياة، لا زوجة تعيش تحت وطأة الهيمنة. كانت تراه هادئًا كنسيم الفجر، ودودًا يُنصت لنبض الحياة من حوله، متزنًا كأنما يحمل في داخله بوصلة لا تضل، ومحبًا لكل شيء يعبر دربه.

رغم علمها بأن راتبه كمعلم بالكاد يفي باحتياجاته الأساسية، لم ترَ في ذلك عيبًا أو نقصًا يستدعي التوقف. لم تكن تشبه أمها التي أحصت الماديات ووضعت الأرقام حائلًا حين تقدم لخطبتها. كان من مدينة بعيدة، يعيل والدته المريضة وأخته العزباء، ورغم ذلك لم يتردد لحظة في اتخاذ القرار الصعب: الانتقال إلى العاصمة، حيث ستبدأ حياتهما المشتركة.

لم تكن تلك التفاصيل تُثقل كاهل أحلامها، بل زادتها تعلقًا به. في عينيها، كان الرجل الذي لا تحكمه الظروف، ولا تهزمه الأعباء، وإنما يجابه الحياة بجرأة صادقة، وبإصرار ينبع من قلب عاشق للحياة، ومن قلب أرادت هي أن تكون ساكنته الأبدية.

## 3. الرمادي الهادئ ...

ذلك الرجل الذي التفّت حوله ظلال الغموض، حتى أطلق عليه البعض لقب "الرمادي"، هادئ هو في مظهره، متزن في حضوره، لكنه يحمل في أعماقه عالمًا من التناقضات والانفعالات المكبوتة.

حينما حدثها ذات يوم عن طفولته، وجدت نفسها تنجذب إلى حديثه كما لو كان خيطًا خفيًا يسحبها نحو قلبه، شعرت بتعاطف جارف، وكأن روحه تتحدث إليها بلغة لم تسمعها من قبل. فقد نشأ في كنف أسرة بسيطة، والده كان عاملاً لم يمتلك من الحياة سوى كدحه وكلماته التي نُسجت في قوالب الشعر الشعبي، تمامًا كما كان والدها، أما أمه فقد كانت ربة

منزل، تجسد صورة الأم الكادحة التي لا تعرف سوى العطاء. حين رحل الأب، تفرق الجمع، سافر الأخ الأكبر ليكمل دراسته، أما ظافر، فقد وجد نفسه في مواجهة واقع قاسٍ، فأسرع لاختصار سنوات الدراسة والتحق بدار المعلمين، ليختزل عمره في ثلاث سنوات فقط، يخرج منها معلمًا، لا ليحقق ذاته، بل ليكون السند لأمه وأخته العزباء، وليحمل على كتفيه مسؤولية أثقل من عمره.

بين بيت الأسرة البسيط وبيت عمته الغنية، عاش طفولته ومراهقته المشوشة، بين عالمين متناقضين حد التنافر. في بيت عمته، كان محاطًا ببناتها المدللات، اللواتي رأين فيه نافذة صغيرة يتنفسن عبرها بعضًا من الحرية التي حُرمن منها في ظل القيود الاجتماعية الصارمة. ووجد نفسه مأخوذًا بهذا العالم المترف، وبالضبط مأخوذًا بإحداهن، تلك التي أيقظت فيه أول رعشات الحب، فبادلها الشعور بقلب ممتلئ بالأمل. لكنه لم يكن يعلم أن الأمل في عالمها ليس سوى حلم هش.
حين تقدم إليها فيما بعد، طالبًا يدها، صدمه رفضها القاسي، الذي اعلمته انه لم يكن قط مناسبًا لها، او بالأحرى لم يكن قادرًا على أن يمنحها ما اعتادت عليه من ترف وكماليات، كان فقيرًا... وهي لا ولن تتنازل عما هي فيه لأجله. في تلك اللحظة، تكسرت في داخله صورة المرأة كما رسمها

في مخيلته، أصبح الحب في نظره خدعة، والوعد سرابًا لا يلبث أن يتبدد.

لكن ظافر لم يكن رجلًا يسقط في هاوية اليأس، بل رجلًا يحول جراحه إلى وقود يشعل به طموحه. انغمس في عالم الفكر والسياسة، وسرعان ما صنع لنفسه مكانة مرموقة داخل منظمات الحزب الشيوعي. لم يكن مجرد تابع، بل مؤثر وفعال، كلماته تجد صداها في صحافة الحزب ومنشوراته، حتى بات اسمه يرتبط بالهيبة والجاذبية، رجل يحترمه الجميع، حتى اولئك اللذين يختلفون معه.
حين تزوجها، حمل طموحه معه إلى العاصمة، حيث منابع الفكر ومراكز الإشعاع الأدبي، يمكنه أن ينهل من المعرفة دون قيود، باعتباره عضوًا في اتحاد الأدباء والكتاب العرب/ فرع بغداد. كان حاضرًا في كل الفعاليات، يلتقي أعلام الأدب العراقي والعربي، يقترب منهم، يكتشف حقيقتهم بعيدًا عن الأسماء الرنانة والألقاب البراقة. رأى كيف أن بعضهم وإن لمع اسمه، لم يكن سوى صورة زائفة، يخفي خلفها ازدواجية سلوكه وخيانته حتى لأبسط مبادئه الإنسانية. كم كانت الحقيقة مرة، لكنها لم تفاجئه، فقد أدرك منذ زمن أن العالم ليس كما يبدو، وأن الإنسان ليس دائمًا كما يقول.

أحبه الجميع، وكان نبعًا للود والاحترام أينما حل. كان حضوره يفيض بهالة من التقدير، كأن القلوب تنجذب إليه بغير اختيار. كانت هي واحدة من تلك القلوب، أحبته بصدق، ولم يكن لها أن تتخيل يومًا أن تتحول ملامح هذا الحب إلى شحوب قاتل، أن يصبح دفء العِشرة صقيعًا قاسيًا، أن يتبدل الحنو إلى فتور، والاحتواء إلى جفاء مميت.
لم تكن تدري متى بدأ كل هذا، ولا كيف، ولا لماذا؟! كان يتغير أمامها بصمت، يتوارى خلف جدران لا مرئية، يحيط نفسه بقوقعته وكأنها غريبة عنه، وكأن قربها بات يثقل أنفاسه. كلما حاولت الاقتراب، كلما تسللت إلى عزلته تستجدي تفسيرًا، واجهها بالنفور والجفاء، كأنما يعاقبها على ذنب لم تقترفه، كأنما يحاسبها على خطيئة مجهولة.
هل كانت جريمتها أنها أحبته أكثر مما ينبغي؟ وأنها خافت عليه من نفسه، من إسرافه في الشراب والدخان، من تلك المسكنات التي أدمنها هربًا من ألمه المزمن؟
كانت تعلم معاناته مع الصداع النصفي، تدرك جيدًا أنه يغرق في موجاتٍ من ألم لا يرحم، لكنها لم تتوقع أن الأوجاع ستسرقه منها، أن تحوله إلى رجل آخر، بارد الروح، غريب النظرات، متواريًا خلف ستار من الكآبة الصامتة.
تساؤلاتها كانت كطعناتٍ غير مرئية، تنغرس في أعماقها دون إجابة. هل كان ابتعاده صدىً لتلك العتمة التي خلفها

مرضه في روحه؟ أم أن هنالك أمرًا آخر، أمرًا لم يُفصح عنه، أمرًا لم تُدركه بعد؟ ظلت هناك، في منتصف حيرتها، بين الحب الذي يأبى أن ينطفئ، وبين الغياب الذي يتسع كل يوم، كهوةٍ لا قرار لها.

## 4. الزواج... رغم معارضة الام

رغم افتقارها للخبرة وجهلها بخفايا العلاقة الزوجية وما يستتبعه هذا الرباط من تحديات معقدة، لم تتردد لحظة، ولم تلتفت إلى الوراء لتتأمل ما اجتازته من محطات، بل اندفعت بقلبها وروحها، مستسلمة لقدر اختارته دون أن تمعن التفكير في العواقب. كل شيء حدث بسرعة خاطفة، لم يكن الطريق مفروشًا بالورد، ولم يكن زواجها تقليديًا يلتزم بأعراف المجتمع وأصوله. لا مهر ولا احتفالات ولا تجهيزات فاخرة، بل كانت مغامرة بلغت ذروتها، تحديًا جريئًا لكل ما هو مألوف.

لم يكن يعنيها سوى أمر واحد، ألا يكون الزواج قيدًا يكبل طموحها، ولا سياجًا يحاصر أحلامها. أرادت أن تواصل مسيرتها في العلم والعمل، رافضة أن تُختزل حياتها في نموذج الزوجة التقليدية التي لا تعرف سوى جدران بيتها. كانت مؤمنة بأن من اختارته شريكًا لحياتها سيتفهم طموحها، سيدعمها، سيقف إلى جانبها في كل خطوة. بهذه القناعة واجهت الجميع، وتحدت أهلها، وسجلت عقد زواجها بحضور شاهدين فقط. لكن هذه الخطوة أشعلت فتيل غضب والدتها، التي رأت في ذلك خروجًا على القيم، فتمسكت بفسخ الزواج، بينما أصرّت هي على المُضي قدمًا، متشبثة بحلمها، بعشقها، بمستقبل رسمته في مخيلتها. وحين اشتد الخلاف، وأغلقت الأبواب أمامها، لم تجد أمامها سوى الهروب، لا ضعفًا، بل قوةً تجسدت في قرارها الفاصل. حملت حقيبة صغيرة، لم تضمّ سوى الضروريات، وخرجت فجرًا، تسابق خطواتها نبضات قلبها، قاصدة من اختارته ليكون ملاذها ورفيق دربها.

لكنها رغم ذلك، لم تنسَ والدها، ذاك الرجل الذي كانت تحبه وتهابه، وتحترز دومًا من أن تغضبه أو تجرح مشاعره.
لم يكن الهروب خيارًا يسيرًا عليها، لذا طلبت من زوجها

أن يذهب إليه، حيث يعمل، ليحصل على إذنه بسفرها معه إلى بيت عائلته، وقد كانت رحلة بلا عودة.

وهكذا، انقطعت صلتها بأهلها لأكثر من عام، لم ترَ وجوههم، ولم تستمع إلى أصواتهم التي كانت يومًا تملأ حياتها دفئًا وطمأنينة. غير أن الشوق ظل ينهش قلبها بلا هوادة، كجمرٍ تحت الرماد، لا ينطفئ مهما حاولت التماسك. ولأن حبها لهم لم يخفت رغم الجفاء، وجدت عزاءها في ظلال مدارس أخواتها، تنتظر خروجهن بعد الدوام، تعانقهن، تتلقف همسات أحاديثهن، تتلمس أخبارهن واخبار بقية العائلة، لتطمئن على أحوالهم.

لكنها، رغم وجع الفراق، بقيت صامدة، تخبئ ألمها خلف جدران الصبر، حتى جاء اليوم الذي طلب فيه زوجها أن تعود لزيارتهم. تُرى، هل كان يُدرك حينها عمق ما ضحّت به؟ هل استشعر أن قرارها لم يكن مجرد اختيار، بل معركة واجهتها بروحها وقلبها، دفعت فيها أغلى الأثمان، حتى لو كان الثمن أقرب الناس إليها؟!

## 5. عائلته

حين رحل والده، ترك خلفه زوجة مكلومة، وأربع بنات وولدين. كان هو الخامس في الترتيب، طفلًا لم يتجاوز الثانية عشرة حينذاك، وحين شدَّ أخوه الأكبر رحاله إلى موسكو لمتابعة دراسته، وجد نفسه مسؤولًا عن الأسرة، رغم صغر سنه، كأنه كُلف بحمل أثقل مما تطيقه كتفاه اليافعة.

مضت السنوات، تزوجت أخواته واحدة تلو الأخرى، ولم يبقَ في البيت سوى أمه الحنون، بوجهها المضيء وابتسامتها التي تفيض طمأنينة، وأخته الكبرى التي لم تكن مجرد أخت، بل كانت الأم الثانية، السند، والقرار الحاسم

في كل صغيرة وكبيرة. كان يدرك ثقل الأيام، فآثر اختصار مراحل دراسته، والتحق بدار المعلمين ليبدأ سريعًا طريق العمل كمعلم، مستعجلًا نضجه، كأن الحياة لم تترك له خيارًا آخر.

عندما التقت عيناها لأول مرة بصورة والده المعلقة على جدار البيت، شعرت كأنها تحدق في ملامح مألوفة، كأن نظراته الوادعة لم تكن غريبة عنها، بل تمتد نحوها بدفء الأبوة الذي افتقدته منذ مغادرتها بيت الطفولة.
نظرت إلى والدته، امرأة رشيقة القوام، بعينين خضراوين تشعان طيبة وصفاء، وابتسامة تحكي عن قلب كبير. أحبت هدوءها وبساطتها منذ اللحظة الأولى. أما أخته الكبرى، فلم يكن لقب "الأخت" وحده يكفيها؛ كانت ام البيت وروحه، كانت القرار الحاسم واليد التي تُرتب الحياة بحزم واصرار معًا.

حين زارتهم، كانت هي الغريبة في مدينة لم تألفها بعد، مدينة مقدسة تفرض على نسائها العباءة السوداء، وحين جاءتها أخته بالعباءة، شعرت وكأنها ترتدي شيئًا أكثر من مجرد قماش، وكأنها تُكسى بعادات لم تكن جزءًا من عالمها.

لم يطل الأمر حتى شعر هو بثقل تلك القيود التي أثقلت روحها، فكان قراره سريعًا، بأن يأخذها بعيدًا، أن يمنحها بعض الهواء قبل أن يضيّق عليها المكان. شدَّ الرحال بها إلى البصرة، حيث البحر والنخيل، حيث الأفق أكثر رحابة، ريثما تستكمل إجراءات انتقاله إلى العاصمة، حيث ستكون هي وكما أرادت، عاملة وطالبة جامعية، شريكة حياة، لا مجرد ظلٍ تابع.

## 6. وساطة بطعم الرماد

كانت خطواتها مترددةً وهي تغادر عتبة البيت الذي استقرا به في بغداد، البيت الذي بالكاد يستقر فوق أعمدة أمل هشّة. عيناها تحملان ثقل الأيام الماضية، تلك التي قضتها في البحث عن عمل يعينها على مواجهة الحياة بعد أن تركت الجامعة مؤقتًا، تحت وطأة الحاجة الملحة والعوز الذي ألقى بظلاله على حياتها الجديدة كزوجة لرجل يكاد راتبه الشحيح كمعلم أن يغطي إيجار البيت.

ومع أن أناملها لم تنفكّ عن ممارسة الخياطة، تلك الحرفة التي عشقتها ومارستها حتى وهي على مقاعد الدراسة،

والتي ظلت رفيقة دربها ومصدر مسرتها، إلا أن خيوطها لم تكن كافية لرتق ثوب الحياة المثقوب بالعوز.

لم تكن تحلم بالترف، بل بسعة في الأفق، بفرصة تُعلي كيانها لا لتكسر جدار الحاجة فحسب، بل لتفتح لها نوافذ المعرفة، وتُلقي بها في قلب الحياة لا على هامشها. كانت ترى في العمل موظفةً لا مجرد مصدر رزق، بل انعتاقًا من ضيق الضرورة إلى فسحة من التفاعل الإنساني، والتواصل مع الآخر، وإعادة تشكيل الذات في مرآة المجتمع.

لقد كانت تلك الليلة مختلفة، حينما عاد زوجها إلى البيت وملامحه تشع ببصيص أملٍ نادر، أملٍ بدا وكأنه انبثق من بين أنقاض الأوجاع المتراكمة، يحمل في يده توصية من وسيطٍ ذي حظوة عند أحد مديري مؤسسة حكومية. كان الأمل يتسلل إلى روحها كنسيمٍ دافئ في ليلٍ شتويٍّ قارس، يهمس في أعماقها بأغنيات خافتة مفعمة بالرجاء، واعدًا إياها بفرصة عمل تضيء عتمة العوز الذي خنق أيامها وأثقل كاهلها.

لطالما عانت من ثقل الحاجة الذي يغتال أحلامها ويطعن طموحاتها. كم مرة نظرت إلى مدرجات الجامعة من بعيد، كمن ينظر إلى نجمةٍ تتألق في سماءٍ بعيدةٍ يستحيل بلوغها! تلك الجامعة التي غادرتها مكرهةً، وهي تجر خلفها خيبة

ثقيلةً تتناثر منها أحلامها المتكسرة، وجعٌ صار يغفو ويستيقظ معها كل يوم.

لكن هذه الليلة، شيء ما كان مختلفًا، شيء ما كان يشبه نبض الحياة يعود إلى صدرها بعد طول احتضار. فرصة العمل تلك لم تكن مجرد سبيلٍ للخلاص من الضيق المادي فحسب، بل كانت جسرًا يوصلها إلى حلمها القديم الذي كاد يندثر في دهاليز الواقع الموحش. كانت تتخيل نفسها وهي تعمل بنشاطٍ لا يلين، تجمع بين لقمة العيش ومنهل العلم، تواصل الليل بالنهار، لتعود إلى مقاعد الدراسة مساءً بقلبٍ مفعمٍ بالعزم والأمل.

كانت تعرف أن الطريق لن يكون سهلًا، وأن الدرب محفوفٌ بالعثرات، لكن شعلة الطموح التي توهجت في روحها تلك الليلة كانت أقوى من كل انكسار. امسكت بالتوصية بحرص شديد وكأنها تتشبث بفرصتها، كغريقٍ يتشبث بخشبةٍ وسط بحرٍ هائج، لقد قررت أن تمضي بإصرارها الذي لا ينكسر، وعزيمتها التي لا تعرف اليأس. في صباحٍ تطرّزت أهدابه بنسيم باردٍ لا يزال يحمل بقايا الليل، نهضت من فراشها مبكرة، كعادتها حينما يرتبط يومها بموعدٍ مصيري. كان الالتزام بالنسبة لها طقسًا مقدسًا، حتميةً لا تهاون فيها منذ نعومة أظافرها، فاستعدت بكل دقةٍ وحساب.

راودها هاجس التأخير وهي تحصي في ذهنها احتمالات الزحام والمواصلات، وربما طارئٍ غير محسوب قد يعترض طريقها، لكنها دفعت بتلك المخاوف إلى ركنٍ من عقلها دون اهمالها، وراحت تُعِدُّ نفسها بخطواتٍ مدروسة. وقفت أمام مرآتها تتفحص ملامحها بعينين تشعّان بحزمٍ لا يخلو من قلقٍ مستتر. اختارت ثوبها بعناية بالغة، ثوبٌ يليق بأجواء العمل الرسمية، يُضفي على حضورها مسحة الوقار والرصانة التي دأبت على إظهارها، مؤمنة بأن المظهر هو البوابة المثلى التي يعبر منها الانطباع الاول، وحينها يجب أن تكون تلك البوابة متينةً لا يعصف بها تردد. جمعت خيوط الثقة التي تناثرت في قلبها كزجاجٍ مهشّم، وحاولت أن تلملم بقايا شجاعتها المتبعثرة كنجومٍ شاردةٍ في ليلٍ دامس. ثم سارت بخطواتٍ مشدودة نحو ذلك اللقاء الذي علقت عليه أحلامها بأملٍ يأبى الانكسار.

عند وصولها إلى المؤسسة، اعترضها مشهد جموع المراجعين المتكدسين عند الأبواب، وجوههم مرهقة بنظرات الانتظار واليأس، كأنهم أرواحٌ تتأرجح بين الرجاء والخسارة. تغلغلت بينهم بخفة، تحمل بين أصابعها ورقة التوصية كأنها جواز عبورٍ إلى عالم آخر.

تقدمت نحو الحارس الأمني، ألقى نظرة متفحصة على الورقة التي ناولته إياها، ثم غاب لدقائق في أعماق المبنى،

بينما بقيت هي في مواجهةٍ صامتة مع تلك الجموع التي تراقبها بأعينٍ يملؤها التساؤل والريبة.
عاد الحارس، يحمل إذنًا بالدخول، كمن يحمل شعلة أملٍ واهنة تتراقص في عتمة الانتظار. تطلعت إليه بعينين تختلجان بالامتنان والرهبة، كأنما تتأرجح بين خوف يطبق على صدرها ورجاء يحاول أن يتنفس. أخذت نفسًا عميقًا وهي تعبر العتبة، وكأنها تخطو من عالمٍ ضبابيٍّ مثقلٍ بالأمل الخافت إلى عالم آخر تقف فيه الأحلام على حافة المصير، تنتظر قرارًا واحدًا قد يعيد تشكيل حياتها.

في قاعة الانتظار، كانت الأنفاس مختنقة تحت وطأة الزحام، حيث الوجوه المتعبة تمتزج بتعب الهواء الثقيل. رجال ونساء يلتفون حول الأمل في انجاز معاملاتهم، بعضهم يتكئ على الجدران، وآخرون يجلسون على البلاط القاسي، يهفهفون بما في أيديهم من اوراق في محاولة لاصطياد نسمة هواء عابرة تبث في أجسادهم بعض الانتعاش لمواصلة رحلة الانتظار الطويلة. من وسط هذا المشهد البائس، طلب منها الحارس أن تنتظر، وأقنع شابًا متعبًا أن يتنازل عن مقعده لها.
جلست على المقعد وخجل يتآكلها، تتأمل الوجوه الشاحبة والعيون المتعبة، وتستمع الى الهمسات المشوبة بالتذمر والأمل. كانت تتساءل بصمتٍ ممزوجٍ بعزيمة خفية: هل

سيأتي اليوم الذي يُكتب لها فيه أن تكون يدًا لإعانة هذه الأرواح المرهقة؟ هل ستُتاح لها الفرصة لتخفيف معاناتهم، لتلبي حاجاتهم التي أنهكها الإهمال؟ كان حلمها أعظم من مجرد وظيفة؛ كانت رغبة جامحة في أن تكون نافذة نورٍ لهؤلاء الذين أثقلهم الانتظار.

عيناها تتنقلان بين الأبواب المغلقة، تلك الأبواب التي تحيط بالقاعة كأنها أسوار تحجب الأمل أو ربما تختزنه. وقعت عيناها على لوحة نحاسية كُتب عليها "غرفة المدير". شعرت بأنفاسها تتسارع وكأنها تستجمع ما تبقى من شجاعة.

كانت هذه أول تجربة لها لتقديم طلب عمل، أول معركة تخوضها في سبيل تحقيق أحلامها. عدّلت من جلستها، وراحت تفكر بتأنٍّ في الطريقة التي ستقدم بها نفسها للمدير، تنتقي الكلمات بعناية، وترتب الجمل بمهارة لتكون واضحة ومختصرة وعميقة. كانت تملك شيئًا أعظم من مجرد التفاؤل؛ كانت تملك إيمانًا بنفسها ورغبةً حقيقية في صنع الفارق.

وبينما كانت الأفكار تتشكل في عقلها كخيوط حريرٍ تنسجها يد ماهرة، لمعت في عينيها نظرة تحدٍ ناعمة. كعادتها، واجهت الموقف بإيجابية وثقة، وكأنها تحاول إقناع ذاتها بأن هذا اللقاء لن يكون سوى بداية الطريق الذي لطالما حلمت بالسير فيه.

استمر الانتظار ينسج حولها خيوط القلق والتوتر، وكأن كل دقيقة تمضي تخنق أنفاسها أكثر. ساعة كاملة مرت وهي تغالب ارتعاش أصابعها وتراقب عقارب الوقت المتثاقلة. وعندما أذن لها بالدخول أخيرًا، شعرت وكأن الأرض تهتز تحت خطواتها المترددة.

تقدمت نحو المكتب بخطوات أقرب للوجل منها إلى الثقة، ونبضات قلبها تتسارع كأنها طيورًا مذعورة تبحث عن ملاذ. كان المكتب ميدانًا للفوضى المنظمة، والأوراق مبعثرة كأنها بقايا أحلام مؤجلة. المدير، الذي بدا منشغلاً بعجالة كمن يطارد الوقت، كان يرتب تلك الأوراق بنفاد صبر ظاهر قبل أن يضعها في ملف ثقيل دُفع إلى يد أحد الموظفين. تبادل معه كلمات مقتضبة، ثم أشار عليه بمرافقة أحد المراجعين المنتظرين خلف الباب.

رفع عينيه نحوها ببطء متعمد، وكانت نظراته تزنها كما لو كانت شيئًا لا شخصًا؛ نظرة تفتقر إلى الدفء، تخلو من أدنى بادرة اهتمام أو تعاطف. كان رجلًا في متوسط العمر، تتجلى على ملامحه صرامة جافة، كوجه جبل لا يلين، وعيناه تنبضان ببرود أشبه بصقيع يزلزل اليقين.

لم يطل الموقف كثيرًا؛ نهض من خلف مكتبه بنبرة ملل خفي، ثم أشار إلى أحد مساعديه ليحتل مكانه مؤقتًا، وكأن وجوده هنا لا يعني له أكثر من إجراء عابر يجب التخلص

منه. التفت نحو الحارس ليسأله بلهجة مقتضبة عما إذا كانت السيارة بانتظاره، وعندما جاءه الرد بالإيجاب، أومأ بيده نحوها بإشارة خالية من أي شعور بالترحيب الرسمي، وقال بصوت جاف لا يحمل أدنى اكتراث: ـ

**"اتبعيني."**

كانت تلك الكلمة، على بساطتها، تطرق على مسامعها كضربة قضيب على معدن بارد. وفي أعماقها كانت تشتعل آلاف الأسئلة، يقودها الأمل رغم كل هذا الجفاء، نحو مصير لم يعد بإمكانها التراجع عنه.

ترددت قليلاً قبل أن تخطو خلفه، كمن يخطو إلى عالم مجهول تتلاعب به الظلال وتخنقه الريبة. حاولت أن تُثبت لنفسها، قبل أن تُثبت له، أنها لا تزال ممسكة بخيوط الموقف، فسألت بصوت يتراوح بين الثقة والتوجس: ـ

**"أليست هذه هي المؤسسة التي يُفترض أن أقدم فيها طلب العمل؟."**

جاءها صوته بارداً جافاً، كريح عابرة بلا دفء: ـ

**"الحديث عن العمل سيتم في مكان آخر."**

ترددت أصداء عبارته في ذهنها كصدى في وادٍ موحش، تائهة بين التفسير والتخمين. مكان آخر؟ تساءلت وهي تحاول فك طلاسم هذا اللغز الغامض. أقنعت نفسها بأنه ربما اختبار غير معلن، وأن لجنة ما تترقبها لتقيِّم حضورها

وأهليتها قبل أن يحسم أمرها. لم تشأ أن تفسر الأمر بسلبية؛ فما زال سلوكه يخلو من تصرف يوحي بأي نية مشبوهة.
ركبت السيارة، وقلبها المثقل بالقلق ينبض كطائر أسير بين قضبان صدرها. وفي محاولة بائسة لكسر صمت الطريق الثقيل، تحدثت عن كفاءتها بإصرارٍ كمن يتمسك بآخر حبال الأمل. شكرت الرجل على الفرصة النادرة، وأكدت له أنها ستكون عند حسن الظن. لكن ملامحه ظلت ساكنة، متجمدة في تعابير مغلقة، وعيناه تخفيان شيئًا لم تستطع قراءته.

كانت سرعة السيارة تزداد كأنها تهرب من شيء ما، أو كأنها تركض نحو مصير مجهول. تطلعت عبر النافذة، فإذا بالمباني تذوب في مرآة الماضي، والطرق تمتد بها نحو العزلة، بعيدًا عن ضجيج العاصمة وحضارتها، نحو فراغ يمتزج فيه الصمت بالقلق.

سألته، وقد بدأ صوتها يرتعش من خوف يكاد يلتهمها: ـ
**"إلى أين نحن ذاهبون؟ أرجوك... أجبني."**
غير أن صمته كان حائطًا صلدًا لا يُخترق، وكأنها تتحدث إلى فراغ قاتم يرفض حتى أن يمنحها صداه.
مضت السيارة تخترق الطرق الريفية الموحشة، حتى وقعت عيناها على لوحة تشير إلى منتجع سياحي. حينها، تصاعدت في أعماقها نيران الذعر، وامتلأ صدرها بهلع

يهدد بانفجار وشيك. راحت تبحث بعينيها المرتجفتين عن أي وجه بشري تطمئن إليه، لكن الطريق كان خاليًا من النجاة.

استجمعت آخر ما تبقى لها من شجاعة، ويدها المرتعشة تقبض على مقبض الباب كمن يتشبث بالحياة نفسها. حاولت فتحه، لكن الخوف كان أسرع من الحركة، والخطر كان أقرب من النجاة.

توقف فجأة على جانب الطريق، وعيناه تنطقان بالغضب والضجر. انقضّت كلماته عليها كالسياط، وهو يلعن الوسيط الذي اوصله إلى هذا الموقف المقيت، ثم أمرها بحدة متعجرفة بالنزول.

ترجلت من السيارة وهي تترنح تحت وطأة الصدمة، وكأنها تتعلم من جديد كيف تحمل جسدها المثقل بخيبة الأمل. لم تكن تعرف ما الذي كان ينتظرها هناك، لكن ما أدركته بوضوح أن براءتها كانت على وشك أن تُدنس بثقة عمياء منحتها لمن لا يعرفون للشرف معنى، ولمن يتخذون من حسن النية جسورًا إلى أطماعهم الدنيئة.

عادت أدراجها مثقلة بالانكسار، لكنها أقوى. أدركت أن الأحلام لا تعترف بالضعف، وأن الطريق إليها محفوفٌ بالأنياب التي يجب أن تتعلم كيف تقاومها. لم تكن الخسارة في الوظيفة، بل كانت في الرهان على وهم الثقة. لقد تعلمت

درسًا قاسيًا، لكنها عرفت أن القوة وحدها هي السبيل إلى النجاة، وأن الطريق لا يُعبد بالنوايا الحسنة فقط، بل أيضًا بالحذر والذكاء.

## 7. حين يعبر الضوء.

## خطوات تتحدى العتمة

تكرّرت المحاولات، وتعدّدت الطرق التي سلكتها، وكلّها كانت محفوفة بالصبر والعزيمة، كأنها تخوض معركة صامتة ضد العوائق وظلال الإحباط. لكنها لم تنحنِ، كانت تنتظر الفرصة لا بمعناها العابر، بل كبوابة خلاص، حتى أشرقت أخيرًا، وتجلّت لها في هيئة وظيفة ضمن أروقة الشركة العامة للمقاولات الإنشائية.

ومنذ وطأت قدماها ذلك المكان، لم يكن الاستقرار غايتها، بل كان مجرد خطوة في درب أطول، أوسع، وأسمى. ففي أعماقها كانت نار الطموح تستعر، ونداء المعرفة يلحّ كرجع صدى في روح لا تعرف السكون. فلم تتردد لحظة،

بل سارعت بالالتحاق بالجامعة، تختار الصحافة والأرشفة مجالًا للدراسة، وكأنها كانت تبحث عن صوتٍ تعبّر به عن ذاتها، وتؤرشف به معاناتها، وانتصاراتها، وعزيمتها التي لم تبهت.

ساعات قليلة كانت تفصل بين عملها في الشركة ودراستها الجامعية في دوام مسائي مرهق، ساعات تقضيها في انتظار مكتوم على مقاعد المكتبة الوطنية أو في أروقة العمل الحزبي، تهدر فيها الوقت الذي لا يكفي لتجتاز المسافة إلى بيتها البعيد. فتواصل مسيرها المرهق بين واجباتها الحياتية وطموحاتها العالقة على حبال الإرادة. وفي كل ليلة، بعد انتهاء دوامها الجامعي، كانت تعود بخطواتها المتعثرة، يرافقها جسد منهك أنهكته الأيام بثقلها. إرهاقها كان يتلبسها كعباءة من ألم، وجوعها يتآمر مع الإعياء ليسلبها ما تبقى من قوة، حتى ان جسدها كثيرًا ما يسقط مغشيًا عليه، مستسلمًا لظلامٍ يفوق سواد الليل حلكة، ظلام ينبعث من أعماقها ويغمر روحها المتعبة.

كانت كل ليلة تخوض رحلتها المعتادة. تنزل عند محطة الباص، الأقرب إلى بيتها، تسير على قدميها لما يقارب النصف ساعة حتى تصل. طريق يمتد على شارع

مخصص للطرق الخارجية، طويل ووحيد، كأنه منفى، ساكن كأن الصمت نفسه قد قرر الاستقرار فيه. الاجواء موحشة، والظلام كأنه قد سُكب على الأرض بلا رحمة، يتسلل إلى عروقها بردًا مرتجفًا وخوفًا يتربص بأحلامها المرهقة.

وفي مواجهة هذه الوحشة، كانت تضم ملف محاضراتها إلى صدرها بقوة بإحدى يديها، وتمسد جنينها الذي ينبض في أعماقها، كنبض الحياة، بالأخرى. كانت تدندن له بأغانٍ لعلها تنسج من حروفها حصنًا من الدفء والأمان، تغالط بها شعور الخوف والتعب الذي ينخر عظامها.

لكن الطريق لم يكن آمنًا أبدًا. فبين الحين والحين، كان هناك من يتربص بها في الظلام، يتلصص على ضعفها المرهق. كثيرًا ما كانت تُفاجَأ بأصواتهم الخشنة، ومضايقاتهم الوقحة، وتصرفاتهم العبثية، التي تتجاوز احيانا حد المعقول وهم يمزقون دفاتر محاضراتها، او يسرقون حقيبتها وكأنهم ينهبون جزءًا من حلمها.

كم توسلت إلى زوجها أن ينتظرها في منطقة الباص حين يعود قبلها، غير أنه كان يعود غالبًا متأخرًا، مشغولًا بأعماله ومتاهاته.

في ليلة عابسة، ملتحفة بالسواد، ثقيلة مثل همٍّ يستوطن الصدر، كانت تخطو بخطى واهنة تتعثر في صمت الشارع المتربص. وما إن اعترض سبيلها أولئك المعتدون، المتعطشون للإساءة والتنمر، حتى توهجت عيونهم كجمرات مشتعلة، يُلوّحون بسجائرهم كأنهم يلوّحون بنار لا غاية لها سوى إحراق عزيمتها التي تسكن قلبها المنهك.
تاهت نظراتها في العتمة، تتحسس في ظلالها بارقة نجاة تبدو أبعد من الأمل نفسه. كانت أنفاسها متقطعة، ترتجف كأوراق في مهب ريح عاصفة، وعيناها تهيم في الظلام كمن يبحث عن نجمة ضائعة في سماءٍ خالية. شعرت بالخوف يتغلغل في عروقها، ويُثقل صدرها، بل ويكاد يسلبها قدرتها على الوقوف.
وسط كل ذلك اليأس، لمع ضوء باهر يخترق عتمة الليل، يتوهج من شاحنة نقل ثقيلة تجوب الطريق على عجل. تملّكها الأمل فجأة، كغريق يمسك بطرف حبل. لوحت بيد مرتعشة، ترفع ملف أوراقها كأنها ترفع راية استغاثة، أو ربما بقايا حلم مهدد بالإنطفاء.
التقطت عينا السائق إشارتها، وأدرك تفاصيل الموقف بنظرة ثاقبة لا تعرف التردد. فرملت الشاحنة على مسافة قصيرة منها، كأنه يلبي نداءً استغاثة غير منطوق، نداءً يستنجد بشهامته المكنونة. كان رجلًا جسورًا، تغمر

ملامحه صرامة بينة وغضبًا نبيلًا، وقلبًا يتقد بشجاعة يندر مثيلها.
ما إن استوعب الموقف حتى ترجل عن شاحنته ممسكًا بأداة معدنية كأنها امتداد لروحه الحامية. اندفع نحو المعتدين كإعصار لا يعرف الرحمة، وصوته يجلجل بوعيد صارم، شاتمًا إياهم بما يستحقون من كلمات. كانت خطواته تروي قصصًا من النخوة والشجاعة، وملامحه تنطق بتصميم لا يقبل التهاون. وبعدما انفضّوا عنه هاربين، ترك خلفه أثرًا يشبه ضوءًا شق طريقه عبر ظلام كان يهدد بابتلاعها.
وقفت مذهولة بين دهشة النجاة وارتجاف الرعب. أدركت آنذاك أن الخير لا يزال ممكنًا حتى في أحلك اللحظات.

التفت نحوها بصوت هادئ يحاول أن يحتوي فزعها، وعرض عليها أن يوصلها إلى بيتها. كان صوته كالحياة التي تعود إلى صدرها المنكوب، شعور بالأمان غمرها وكأنها نجت من غرقٍ محتم. صعدت إلى السيارة وهي تجر أذيال ما تبقى من التعب والخوف، لكن شيئًا من الطمأنينة كان ينمو في صدرها كزهرة تتفتح رغم كل هذا الظلام.

## 8. الوصول الى صوفيا...

انسابت بها الذكريات كجدول حنين لا يعرف سكونًا، تحملها الأمواج وتتنازعها الرياح، فتأخذها بعيدًا عن حاضرها، وتغمرها بمزيج من مشاعر مبهمة وماضٍ لم يغب يومًا عن وعيها. كانت عيناها شاردتين، كأنما تبحثان في الأفق البعيد عن ملامح وجهٍ غائب أو لحظة عالقة بين طيّات الزمان، فيما قلبها يعلو ويهبط مع كل نسمة تلامس نافذة الطائرة، وكأنها توقظ فيها جراحًا قديمة نائمة.

تسارعت الصور في خيالها كما لو أن الذاكرة استعادت نبضها دفعةً واحدة، وتفلّتت اللحظة من قبضة الزمن، تسبح خارج قيوده، قبل أن يمزّق صوت قبطان الطائرة خيوط

شرودها بنبرة واثقة تعلن اقتراب الهبوط في مطار صوفيا، وتبثّ للركّاب توقيت المدينة ونبض طقسها.

عادت بها الذاكرة، فجأة، إلى أولى خطواتها على أرض الغربة، إلى تلك اللحظة التي تعثرت فيها خطواتها فور نزولها من سلم الطائرة في نفس هذا المطار، مطار صوفيا، يومها بدا الانكسار أشبه بمرآة لروحها المتعبة، كما لو أن الأرض رفضت خُطاها المرتجفة. ابتسمت الآن، لا سخريةً من تلك اللحظة، بل امتنانًا لها، إذ أدركت أنها كانت أول خيط نسج لها طريقًا لم تكن تدري أنه سيعيد تشكيلها من الداخل.

نهضت حاملة صغيرها من مقعدها كمن ينهض من رماد حلمٍ مؤجل، تشدّها إلى الأمام رغبة أقدم من الألم، وأصدق من التردّد. كانت في داخلها ولادة جديدة، لا يُسمع صراخها إلا في أعماق الصمت، حيث ينبض الإيمان بأن لكل انكسار غاية، ولكل خطوة شاقة موعِدًا مع التحوّل.

هي لم تعد تلك المرأة التي أتت إلى صوفيا قبل سنتين، محمّلة بالأسى والحنين والتساؤلات. هي الآن امرأة صقلتها الآلام، وعلّمتها التجارب كيف تمشي على الشوك دون أن تنزف، وكيف تصغي لنبض قلبها حين يصير دليلاً.

وعلى عتبة الهبوط، لم تكن تحطّ على أرضٍ جديدة، بل كانت تهبط في ذاتها من جديد. في تلك اللحظة، شعرت أن الحلم الذي كان يتدلّى من سماوات المستحيل، قد انحنى لها برفق، وتجلّى قريبًا، لا وضوح فيه، لكنه يضيء.

نظرت من نافذتها نحو الأفق الرمادي بداخلها، وقد انفرج في قلبها نورٌ شفيف، يهمس لها أن البداية ليست في المكان، بل في القرار. أن تكون صادقة مع ذاتها، تلك كانت الخطوة الأولى، وها هي تخطوها الآن بكل جوارحها، لا إلى مدينة، بل إلى ذاتٍ جديدة، واثقة، ناهضة من بين حطامها، تمضي إلى حيث تصنع الحلم، لا ان تنتظره.

انتهى الجزء الأول

...

# كلمة اخيرة

عندما وضعت القلم وأنهيت السطر الأخير من روايتي، جاءني خبر ولادة حفيدنا الثاني، كأن الحياة أرادت أن تقول لي:

**- "لا نهاية تُكتب إلا وفي طيّها بداية أخرى، أكثر املا وإشراقًا وأشدّ امتلاءً بالحب".**

شعرت أن الكلمات التي سطّرتها لا تكتمل إلا بهذا النور الجديد الذي دخل حياتنا، فصار الختام عندي افتتاحًا، والنقطة الأخيرة شُعلة حب ورجاء.

أُهدي هذه الرواية إلى حفيدي، أمل وآريس

22.05.2025

# الكاتبة في سطور

وُلدت في مدينة النجف، ونشأت في بغداد، حيث تفتّحت عيناها على نبض الفن والفكر.
بدأت مسيرتها العلمية بدراسة الأرشفة والصحافة؛ مسكونة بالشغف للكلمة وتوثيق الحقيقة، غير أن الظروف السياسية العاصفة أواخر السبعينات أرغمتها على مغادرة العراق، فكانت الهجرة قدرًا فرضته المبادئ.

لم توقفها المنافي، بل كانت منطلقًا جديدًا؛ فحصلت على درجة الماجستير في الاقتصاد السياسي من بلغاريا، وواصلت رسالتها المعرفية بالتدريس في جنوب اليمن ثم ألمانيا.

في موازاة ذلك، خاضت غمار الإبداع العملي والفني، فتخصّصت في فن التصميم والخياطة، وعملت بهما في عدة دول، لتكون ألمانيا محطتها الأخيرة في هذا المجال تاركة بصمتها الخاصة

تنوعت خبراتها في ألمانيا بين الترجمة والعمل وفي المجالات الاجتماعية والتربوية.

احبت الادب وشغفت به منذ نعومة اضفارها. لها مساهمات أدبية ونقدية. نُشرت وتنشر في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية.

# الفهرست


| | | |
|---|---|---|
| 1 | | المقدمة |
| 5 | | توطئة |
| 9 | | الفصل الأول/ بين غربتين |
| 11 | 1 | شجو اللقاء |
| 21 | 2 | وخزات الغربة |
| 29 | 3 | غربة مع الشريك |
| 35 | | الفصل الثاني/ روسه |
| 37 | 1 | القرار |
| 42 | 2 | المخاض |
| 45 | 3 | الولادة |
| 50 | 4 | مغادرة المستشفى |
| 53 | 5 | ما بعد الولادة |
| 57 | 6 | فستان زواج يروي حكاية |
| 61 | 7 | إبرة لخيط الذكريات |

| | | |
|---|---|---|
| 66 | 8 | الطير يرقص مذبوحًا من الألم. |
| 71 | 9 | المرض... |
| 75 | 10 | الدعوة الى العشاء |
| 79 | 11 | ومضة تذكر |
| 83 | | الفصل الثلث/ اليمن/ 1997 |
| 85 | 1 | مودية |
| 90 | 2 | ظلال من الكأبة |
| 93 | 3 | نوايا مريبة |
| 96 | 4 | الانتقال الى العاصمة / زيارة الاخ |
| 101 | 5 | معسكر التدريب |
| 106 | 6 | الوداع الاخير |
| 110 | 7 | مفاصل ما بعد السفر |
| 115 | 8 | الاستشهاد |
| 119 | 9 | نافذة ضوء في حلكة عتمتها |
| 125 | | الفصل الرابع/ التداعيات |
| 127 | 1 | طفولة الأبوين المسلوبة |
| 131 | 2 | بيت العمة ام حسين |
| 133 | 3 | سلام عادل في ذاكرة الوالدين |
| 138 | 4 | شجاعة الام زهرة |

| | | |
|---|---|---|
| 141 | 5 | القربان.. قسوة التضحية، |
| 145 | 6 | اقتران الوالدين/ الرحيل الى العاصمة |
| 148 | 7 | تعلم التمريض |
| 151 | 8 | وداعًا للسكن المشترك |
| 154 | 9 | زهرة حضن الرحمة في عتمة الليل |
| 166 | 10 | الوالد.. ذلك الذي يقرأ بروحه |
| 174 | 11 | الاعتقال والتعذيب |
| 179 | 12 | إطلاق الصراح |
| 182 | 13 | وداع الاب |
| 185 | | الفصل الخامس/ التجربة |
| 187 | 1 | العودة الى بلغاريا/ حزيران 1981 |
| 189 | 2 | البدايات |
| 194 | 3 | الرمادي الهادئ... |
| 199 | 4 | الزواج... رغم معارضة الأم |
| 202 | 5 | عائلته |
| 205 | 6 | وساطة بطعم الرماد |
| 216 | 7 | حين يعبر الضوء |
| 221 | 8 | الوصول الى صوفيا |
| 224 | | كلمة اخيرة |
| 225 | | الكاتبة في سطور |

بين غربتين

تدير الراعي سعاد مقادير حكايتها
بصدى الروح.. رافعة ريش الكلمة
لاحتكام اللهاث.. بين عذوبة السرد
وتحدي الاحداث.. فتدثر لحظات
وجعها بأختام الاستعارات،
مبللة حديثها بغمامة
الماضي عبقًا لحاضر
الانتصار على كبوتها

**طارق الحلفي**

سرد ممتع وشفاف، ولغة
جميلة مرهفة ومتدفقة
وباسلوب واقعي، ينتمي
الى الواقعية الاجتماعية،
تدفع القارئ الى متابعة
الاحداث بتشوق وتأثر..

**الناقد جمعة عبد الله**



الغاية من كتابة السيرة الذاتية ليست مجرد توثيق لما كان، بل هي فعل تحرّر، انعتاق من قيود الذاكرة الثقيلة، صرخة تُطلق قبل أن يسدل الموت ستاره، لتبقى الكلمات بعدنا كضوء دافئ في عيون من نحب. إنها محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من إنسانيتنا.

**سعاد الراعي**

عمل روائي يُعزى الى أدب
السيرة الذاتية،
اسلوب السرد يتسم بالتلقائية
والانسيابية..
أما اللغة فمفرداتها بعيدة عن
التقريرية التي يقع فيها الكثير
من كتاب السيرة الذاتية..

**الشاعر جميل حسين**

هي قصةٌ ســادَ البديعُ سطورَها
جادت (ســعاد) بها فَبانَ بيانُها

أبْعادُها عَـبَقُ الأصالةِ حـاويا
صورَ النقاء تلوح في اغصانها

**الشاعر عدنان البلداوي**

سعاد الراعي